

المكتبة الأهلية بشارع عبد العزيز بمصر



MISERABLES

تأليف

فيكتور هيجو

شاعر فرنسا العظيم

وتعريب

طانيوس عبده

صاحب مجلة الراوي

الجزء الاول — الطبعة الأولى — سنة ١٩٢

المكتبة الاهلية

بشارع عبد العزيز — بمصر

يُرسل (بيان) قائمة كتبها — مجانًا لمن يطلبه

وعنوان المخاطبة

صندوق البوستة ٩١٨

مقدمة موجزة

أرأيت الخمر كيف تضطرب فى الكاسات وهي تنعش القلوب، والشمع كيف يكشف الظلمات وهو ينحل ويذوب ، أرأيت السحاب تحرقها البروق الخاطفة ثم تستحيل إلى ديم ، والديم تبتلعها الارض الجافة ثم تحيي الامم . أرأيت الشمس تتوهج ناراً ثم تصفر وتغيب . ولا يصل الى الكائنات منها غير نور ذلك اللهيب . أرأيت الطير تسكرها هينمة النسمات ، فتحن فوق الأيك حنان الهيام وما هن بهائمات

ذلك هو الشاعر الذى يسمو بمعراج التصور الى السحاب ، فيجمع بين نجوم السماء وأنجم التراب . ويسكر حتى لا يفتأ سكران ولكن بغير خمر الدنان ، ويصحب أهل الارض وهو من عزلته بغير خلان ، ذلك هو الشاعر الذى يكذب بلا اثم . ويهوى بلا قلب ، ويبكي من غير ثكل ، ويشتغل بلا كسب ، بل هو ذلك الشاعر الذى اذا رآك تجلس فوق بساط من الديباج الاحمر ، قنع من مجلسه ببساط من العشب الاخضر . وإذا بنيت قصورك الشاهقة تناطح الجبال ، بني قصوره الشاهقة على رمال من الآمال ، فما مناه غير هذه البيوت من الاشعار وما عزاه غير أنها تبقى مدى الادهار وكفي به أن يحترق لينير البصائر ، ويذوب لتتماسك به خلايا الضمائر . ويجني وردة الخيال لتشم شذاها؛ فتنال بفضله عطرها وهو لا ينال غير شوكها وأذاها

ولقد مضى على الشاعر عهد كان فيه مطلب كل حميد وغاية كل رئيس ، فكان الاقدمون يجلونه حتى بلغوا باجلاله حد التقديس ثم استحال الى صناعة للارتزاق فانحط بعد الارتفاع . ثم صار آلة للاستكداء فبات من سقط المتاع . الى أن قيض الله رجالا غاروا على العروس فصانوها من الابتذال . وبذلوا المهج فوق الطروس فافتدوها من الاعتقال ، ثم ردوا اليها تاجها القديم فعاد اليها ذلك الجلال ، وكان هيجو أسبق أخوانه فى هذا المجال وأقربهم الى القصد من غير جدال

هذا هو الشاعر بل هذا هو هيجو سيد النثر والنظم . الملقب بالكاتب الكبير والشاعر العظيم ، بل هذا هو ... الفصحاء وسيد البلغاء وحجة الكتاب وأستاذ الشعراء . وكفى بوصفه أنه منشىء كتاب البؤساء

ولا نفيض في وصف هذا الكتاب الذى أخذنا بنقله الى العربية لخدمة ابنائها ، فسيجد القراء فى كل صفحة منه شهادة على فضل واضعه . بل نقتصر على القول انه مازال ذل الرجل بالمسكنة وسقوط المرأة بالجوع وما زالت الشرائع والعادات تنقل جهنم الى الارض وتزج فيها البؤساء . ومازال الجهل منفشياً والشقاء مخيما على بني الانسان ، فلابد من مثل هذا الكتاب لاحياء النفوس وتنوير الاذهان

ميريل

في سنة ١٨١٥ كان شارل فرانسو ميريل أسقفاً على مقاطعة د . وهو شيخ أحنت ظهره الايام وكان يبلغ العقد الثامن من العمر كان ابن أحد المستشارين في مجلس البرلمان فعاش في ظل وارف من نعمة أبيه الى أن شبت نار تلك الثورة الكبرى في فرنسا فتقوضت أركانها وقلبت كيانها وحصدت شيوخها وفتيانها . ومزقت الاسرات وخربت البيوتات فكان ميريل من الذين فجعوا بتشتيت الشمل فهرب مع الهاربين لاجئاً الى البلاد الايطالية ولم يعد إلا بعد أن سكن ثائر البلاد وقطعت المقصلة رأس ملكها وانقلبت الملكية الى الجمهورية ومن الجمهورية الى القنصلية ومن القنصلية الى الامبراطورية وذلك سنة ١٨٠٤ في عهد نابليون العظيم؛ وقد عاد الى بلاده وهو كاهن بسيط فعين كاهناً لقرية برينيول وهو قد بلغ من العمر عتياً

فلما أزف وقت تتويج الامبراطور سافر الى باريس لقضاء مهمة لدى الكردينال فيش قريب الامبراطور واتفق قدوم الامبراطور لزيارة قريبه والكاهن في قاعة الانتظار فجعل ينظر الى الامبراطور معجباً مفتوناً واجفل الماعل نظراته فقال من هذا المسكين الذي ينظر الي هذه النظرات

فدنا الكاهن منه خياه كما يحيون الملوك وقال له

انك يامولاى تنظر الى رجل صعلوك ينظر الى رجل عظيم فعسى أن يستفيد كلانا من صاحبه

وكأنما الامبراطور قد راق له جوابه فسأل عنه الكردينال وأمر من فوره فعينه أسقفاً على المقاطعة التي كان فيها براتب قدره ألف دينار فى اليوم

كان هذا الاسقف أغر المآثر جم الحسنات حاضر الذهن مزاحاً على طباع كالسحر الحلال . وأخلاق أرق وأنقى من الماء الزلال فمن مآثره أنه كان يكسب في العام ألفى دينار من خدمة رعيته فى أفراحهم ومآتمهم وعمادهم الى غير ذلك من موارد الاساقفة فيضيف مايكسبه الى راتبه وما يجمعه من صدقات المحسنين فيفرقه على البؤساء ولا يختص نفسه من كل تلك الموارد إلا بخمسة وسبعين ديناراً مقتراً على نفسه وعلى عياله

ومنها انه كان يقيم فى دار الاسقفية وهو قصر فخم بناه أحد الامراء لنفسه ثم أوقفه على الاسقفية

وكان بجانبها مستشفى صغير ضيق الرحاب لا يسع أكثر من عشرين مريضاً فلما رأى الاسقف ضيق المستشفي ورحب داره اتخذ المستشفى منزلا له وحول القصر الى مستشفى فجأرت الالسن بالدعاء له وعلقت به القلوب من ذلك العهد

ومن نكاته ان اخته كانت تلقبه بلقب العظمة مراعاة لمنزلته

الاسقفية فأراد يوماً أن يأخذ كتاباً من مكتبه فلم تصل اليه يده لارتفاعه فناداها وقال لها ائتيني بكرسي أصعد عليه فان عظمتي لا تصل الى هذا الكتاب

ومنها أنه رأى مرة أحد كبار الاغنياء يتصدق بدرهم على اشتهاره بالبخل فقال انظروا من يشتري جنة بدرهم

ومن أقواله في الضعف الانساني

أن المرء لا يتنزه عن الخطأ وما مثل المخطيء إلا مثل من يسقط على ركبتيه فاذا تنبه أقبل العثار أقيل العثار

وما العصمة إلا لله وكفى بالمرء ان يكون من أهل الحق ولقد يلومون المرأة لسقوطها ، والفتيان لطيشهم والفقراء لذلهم والجهلاء لجهلهم ولو أنصفوا لما انحوا باللائمة إلا على الازواج والآباء والاغنياء والعلماء فهم علة سقوط المرأة وغرور الفتى وذل الفقير وجهل الجاهل

ومن أقواله في الخالق وقد وجدوه مكتوباً بخط يده على هامش كتاب

« لقد لقبك سفر الجامعة بالقدير ودعاك المكابيون بالخالق المبدع ونعتك الحواريون بالحرية وسماك الزبور بالحكمة والحق ووصفك يوحنا بالنور ودعاك الناس بالله

« أما سليمان فقد سماك الرحمة وهي خير أسمائك يا أرحم الراحمين »

وعلى الجملة فقد كان لهذا الاسقف منزلة سامية بين قومه لم ينلها الا بنفسه الكبيرة وحلمه العظيم وعقله الرجيح وحسناته التى لم يكن يقف بها عند حد

وقد اشتهر بزهده وتقواه حتى هرع اليه الناس يتبركون به من كل صوب بل أن اللصوص كانوا يحترمونه فقد اتفق أن أحدهم سرق كنيسة فى أسقفيته وذهب بما سرقه الى رئيس العصابة فما فتىء زعيم العصابة أن رد المسروق الى الاسقف معتذراً وشفعه بهبة يوزعها الاسقف على الفقراء كفارة له عن ذنبه ليس عن سرقة الكنيسه بل عن سرقة كنيسة داخلة فى منطقة هذا الاسقف

هذه لمعة من أخباره بسطناها على سبيل الايجاز توطئة لحوادث هذا الكتاب ، ولنبدأ الآن سياق الحديث فنقول :

١

ليله بعد مسير يوم

اصفرت الشمس من ألم الفراق ، وتوهج الشفق عليها من الاشفاق وحزعت الطير لفراقها فاعتزلت بين الاوراق وهينم النسيم . فاهتزت الغصون وأنت أوراقها انين المشتاق

وأن رجلا دخل الى المدينة فى ذلك الحين ماشيا وهو ربعة القامة متين العضل يناهز الخمسين من العمر وقد لوحت الشمس وجهه وسال العرق من جبينه

وكان يلبس قميصاً من القطن وسروالا أبيض نقب القدم إحدى ركبتيه ورداء فوق القميص يشبه طيلسان ابن حرب وهو يحمل على ظهره كيساً من الجلد يشبه الجراب وبيده عصا ضخمة كثيرة العقد يتوكأ عليها وله لحية طويلة امتزج فيها العرق والغبار فكادا يكونان طيناً

وعلى الجملة فقد كان كل ما فيه يستلفت الانظار فوقف الناس يتفرجون عليه في الطرقات والنوافذ وعتبات الابواب

ولم يكن بينهم من يعرفه ولا يعلمون من أمره سوى انه دخل الى المدينة من نفس الطريق التى دخل منها نابوليون حين ذهابه من مدينة كان الى باريس

وقد مشى هذا الرجل حتى انتهى الى دار المحافظة فدخل اليها وخرج بعد هنيهة وكان عند بابها جندى فنظر اليه نظرة المراقب ولبث يشيعه بالنظر حتى توارى

أما الرجل فانه سار لا يلوى على أحد حتى وصل الى فندق لابار وهو فندق كان مشهوراً في ذلك العهد ودخل من باب مطبخه إذ كان مفتوحاً فى جهة الشارع وقد انبعثت رائحة الطعام فلم يعد يجد صبراً لفرط ما أصابه من الجوع فقد طوى أحشاءه كل ذلك اليوم

وكان صاحب الفندق هناك يراقب الطهاة وهو يكشف حلة ويراقب حلة ، فلما رأى ذلك الرجل داخلا وعلائم المسكنة بادية عليه أنكر دخوله إلى الفندق وقال له

من الرجل وماذا تريد ؟

قال أريد أن آكل وأنام

قال ذلك سهل ميسور بشرط دفع ثمن الطعام وأجرة المنام

فأخرج الرجل من جيبه كيساً من الجلد فضرب عليه كى يسمع صاحب الفندق رنين الفلوس وقال له

لدي ماتطلبه فى هذا الكيس

قال إذا كان ذلك فقد أتيت على الرحب

وقد جعل يشتغل فى مراقبة الطعام في القدور وهو لا يفتأ يراقب ذلك الرجل وينظر اليه نظرات خفية

أما الرجل فكان يسأل من حين الى حين قائلا : متى يتعشون

فيجيبه صاحب الفندق قائلا

صبراً فسيقرع الجرس فى القريب العاجل

أما صاحب الفندق فانه بعد ما فرغ من مراقبة الرجل أخذ دفتراً من جيبه فانتزع منه ورقة كتب عليهـا سطراً ثم طواها ودفعها الى أحد الخدم بعد أن همس فى أذنه بعض كلمات فانطلق الخادم راكضاً إلى جهة المحافظة

أما لرجل المسافر فانه لم ير شيئاً مما كان وقد ضيق الجوع أخلاقه فعاد الى السؤال عن وقت العشاء

فكان صاحب الفندق يجيبه نفس جوابه الاول . ثم عاد الخادم الى سيده بجواب رسالته ، فتلاه بامعان وهو يهز رأسه وقد أطرق هنيهة اطراق المفكر ثم دنا من الرجل وقال له بلهجة المشفق : يعز على ياسيدى أنى لا أستطيع قبولك فى فندقي

فوقف الرجل منذهلا وقال

كيف ذلك ألعلك خفت أن لا أنقدك الثمن . أم تريد أن يكون النقد عاجلا فقد علمت إنى ما أتيتك صفر اليدين

— ليس هذا الذى يمنعنى عن قبولك

— إذن ماذا

— ذلك انه ليس لدى غرفة خالية

— لا بأس فانى أبيت في الاصطبل

— وهذا محال

— لماذا

— لان الجياد تشغل جميع الاماكن فيه

— اذا عدمت مكانا فى الاصطبل فلا أعدم فراشاً من القش أبسطه في أى مكان شئت وسننظر فى ذلك بعد العشاء

— يسؤنى أيضاً انى لا يسعني أن أطعمك

فكبر ذلك على الرجل وتبين اليأس فى عينيه فقال له انى أكاد أموت جوعاً وأنا أمشى منذ شروق الشمس فقطعت اثنتى عشرة مرحلة دون أن أتبلغ بشيء من القوت

— لاحيلة لى بك فلا أستطيع اطعامك إذ ليس عندى طعام

— وما هذا الذى يغلى فى القدور

— انه طعام أضيافي

— كم يبلغون

— نحو عشرين

— وهذا الطعام الذى أراه يكفى أربعين فماذا تقول

ثم جلس على الكرسى وهو يقول : انى هنا وأنا جائع وسأبقى حيث أنا

وعند ذلك دنا صاحب الفندق منه فهمس بأذنه قائلا اذهب من هنا

وقد قال له هذا القول بلهجة ارتعش لها فالتفت اليه وهم

أن يجيبه فنظر اليه صاحب الفندق محدقاً وقال له بصوت منخفض كفى وانصرف . . . أم تريد أن أقول لك من أنت . . . انك تدعى جان فالجان فهل تريد أن أصفك لنفسك أم تكتفى بما سمعت . . . انى شككت بك حين دخولك وأرسلت رسالة الى المحافظة فسألت عنك وهذا جوابها فهل تعرف أن تقرأ ، على انى تعودت مجاملة جميع الناس فانصرف وكفى

فأطرق الرجل برأسه وأخذ جرابه فألقاه على كتفه ثم تأبط هراوته وانصرف فسار فى الشوارع باحثاً عن طعام ومأوى وهو أشقى خلق الله الى أن رأى نوراً ينبعث من منزل في آخر الشارع ورأى على بابه ما استدل منه انه ينبعث من خمارة . فأسرع الخطى حتى بلغ اليها ونظر من وراء الزجاج الشفاف الى داخلها فرأى جماعة جالسين حول مائدة شراب وهناك مستوقد يستدفئون بناره وقدر تغلى فوق النار

فقال في نفسه نعم المكان فاني أشرب فيه وآكل وأنام

وقد دخل آمناً فاستقبله صاحب الحانة قائلا

من أنت وماذا تريد ؟

قال أنا رجل يريد ان يأكل ويبيت

قال لقد وجدت بغيتك فاجلس الى ان ينجز الطعام واذا أردت الشراب فسل ما تشاء

فالقى الرجل جرابه على الارض وجلس يصطلى بجانب المستوقد

بينما الشاربون ينظرون اليه ويفحصون زيه الغريب

وان بينهم رجلا عرفه كما يظهر فأشار إشارة خفية الى الحمار حتي اذا جاءه مستفهماً همس في أذنه بضع كلمات فدنا الحمار من جان وقال له

قم وانصرف

فالتفت المنكود اليه وقال له

اذن لقد عرفت

قال هو ذاك

— انهم أبوا قبولي في ذلك الفندق

— وهنا يطردونك

— ولكن الى أين تريد أن أذهب الآن

— اذهب الى حيث

فأخذ جرابه وعصاه وانصرف فتبعه الغلمان يرمونه بالحجارة فكان يعود اليهم منذراً إياهم بعصاه فيهربون

وما زال سائراً وهو لا يعلم الى أين يسير حتى بلغ باب السجن وطرقه فخرج له أحد الجنود وقال له ماذا تريد

قال أريد أن آكل وأنام

قال انك عند باب سجن لا باب مطعم . فارتكب جناية وتعال نطعمك ونأويك

فانصرف قانطاً الى أن وصل الى منزل صغير فطرق بابه

وخرج له صاحب المنزل والمصباح بيده وسأله عما يريد

فقال انى غريب جائع يا سيدى ولى من المال ما يشبعنى من جوعي فهل تأذن لى بما يتيسر من الطعام اذا نقدتك الثمن على أن تسمح لى أيضاً أن أبيت ليلتى في الحديقة

قال من أنت ؟

انى قادم من سواسون ماشياً وقد أنهكنى التعب والجوع

— لماذا لا تذهب الى أحد الفنادق

— لقد فعلت فما وجدت مكاناً خالياً

— هذا محال فقد انقضت أيام الاعياد ، أذهبت الى فندق لابار ؟

فاضطرب جان وقال نعم ولكنهم أبوا قبولى

— أذهبت الى الفندق الكائن فى شارع شافيت

فاشتد اضطرابه وقال انهم لم يقبلونى أيضاً

فاشتدت ريبة الرجل ونظر الى جان محدقاً نظرة الفاحص ثم صاح صيحة رعب وقال

ألعلك الرجل ؟

ثم تراجع الى الوراء فوقع المصباح على المائدة وأخذ بندقيته المعلقة فى الجدار وصوبها اليه وهو يقول

اذهب أو أطلقها عليك

قال رحماك اغثنى بشربة ماء

قال ليس عندى غير رصاص هذه البندقية

فانصرف الشقى وقد اسودت الدنيا في عينيه واقفل الرجل الباب في أثره بعنف شديد

وكان الهواء يهب من قمم جبال الألب بارداً زمهريراً فيسرع المنكود فى خطاه توصلا الى الدفء الى أن رأى حديقة وفيها ذريبة فاخترق سياجها ودخل الى الدريبة زاحفاً لضيق بابها فوجد فيها فراشاً من القش فقال في نفسه

انى أبيت فيها ليلتي على الطوى فآمن البرد وهو أقتل لى من الجوع وقد انطرح فوق ذلك الفراش على بطنه لفرط ما لقيه من التعب ثم نهض على أن يجعل جرابه وسادة

ولكنه لم يلبث أن يفعل حتى سمع نباح كلب ثم رأى كلباً هائل الخلقة قد مد رأسه من باب الزريبة فأيقن أنها معدة لنوم الكلب

وقد تسلح بعصاه واتخذ جرابه مجنا يقيه عضاض الكلب وخرج من الحديقة بعد أن مزقت انياب الكلب ثيابه ولم تنفعه العصا ولا المجن

وهناك عاد الى الطواف حتى انتهي الى كنيسة مقفلة فجلس على حجر عند بابها يرتعد من البرد والجوع فلم يطل جلوسه حتى مرت به امرأة عجوز أشفقت عليه وسألته قائلة

ماذا تعمل هنا أيها الصديق

قال انى أنام كما ترين

— أهنا تنام وعلى هذا الحجر

— من لى بغير هذا الفراش يا سيدتى وقد ذهبت الرحمة من القلوب فلقد قضيت عشرين عاماً كنت أتوسد فيها الخشب وأتغطى بالسقف أما اليوم فانى أنام على الحجر وأتغطى بالسماء

— ألعلك كنت جندياً

— نعم ياسيدتى

— لماذا لم تذهب الى الفندق

— ليس لى مال

— ولكنك لا تستطيع المبيت هنا فانك قد تكون جائعاً فيقتلك البرد والجوع

— هذا الذى أتوقعه

— انك لا تعدم محسناً يمينك على المبيت

— لقد طرقت كل الابواب فما وجدت محسناً

— أطرقت هذا الباب

وقد أشارت بيدها الى منزل لاسقف

— كلا

— اذن قم واطرقه وأنا الضمينة لك بالنوم والشبع

— ٢ —

كان الاسقف فى تلك الليلة مختلياً فى غرفته يشتغل فى أتمام كتاب يؤلفه عنوانه ـ الواجبات

وكان يستعين على تأليف مواده بكل ما قاله الرسل وآباء الكنيسة فى هذا الموضوع الخطير

وكتابه هذا ينقسم الى قسمين قسم دعاه واجبات الجميع وقسم سماه واجبات الفرد

أما واجبات الجميع فهي فى عرفه أربعة فصلها متى الانجيلى فقال فى تفصيلها

انها واجبات المجموع نحو الله وواجبات المرء نحو نفسه ونحو قريبه ونحو سائر المخلوقات

وأما بقية الواجبات فقد استخرجها من مواضع شتى فكان منهمكا أشد الانهماك بهذا الكتاب

وكانت قد دنت الساعة الثامنة وهو لا يزال يشتغل بينما كانت الخادمة تعد الطعام له ولأخته

فلقد كانت عائلته مؤلفة منه ومن أخته ومن خادمته التى كان يعدها من العائلة

وكانت تشتغل بوضع الصحون وترتيب المائدة وهى تتحدث

مع أخت الاسقف فقد كانتا صديقتين لطول الالفة بينهما ثم انهما كانتا بعمر واحد وكلتاهما تجاوزتا الستين من العمر

وكانت تحدثها بما شاع على الالسنة فى ذلك اليوم وهو قدوم رجل من أهل الشبهات الى البلد وتخوف الناس من شره حتى اضطر معظمهم الى الرجوع مبكراً الى منزله

وذلك لان هذا الرجل قد استفحل شره كما يقولون ولانهم كانوا يعلمون ان المحافظ على خلاف دائم مع مدير البوليس مما دعى الى تراخى البوليس في مسائل الامن العام

وقد استطردت من حديثها الى قولها

ان كل عاقل في مثل هذه الشؤن يحكم اقفال بابه حذراً من شر هذا اللص خلافاً لنا فان أخاك لا يأذن أن نقفل الباب إلا بالسقاطة البسيطة بحيث يستطيع كل من يشاء أن يدخل دون استئذان كل ما أراد

وفيما هما يتحدثان دخل الاسقف وجلس بينهما يفتكر بكتابه والخادمة لا تزال تتكلم

فقالت له أخته ألا تسمع يا أخى ما تقول مدام مجاوار

قال لقد سمعت أقوالا مبهمة تدل على انها موجسة خيفة فماذا حدث وأي خطر ينذرنا

فعادت الى بسط حديث ذلك اللص الذى دخل الى البلد وخافه الناس وقالت

لقد رأوه بعيونهم يرود فى الشوارع وعلى كتفه جراب من جلد وله خلقة هائلة توقع الرعب فى القلوب

قال أحق ما تقولين

قالت هو ما قلت لك يا سيدى فلابد من حدوث مصاب فى هذه الليلة فاننا نقيم فى بلاد جبلية والشوارع مظلمة لا مصباح فيها ومنزلنا على ما تعهده فان أختك تقول قولى دون شك فسلها تجيبك

فاعترضتها أخته قائلة

إنى لا أقول شيئاً وكل ما يفعله أخي حسن

فمضت الخادمة فى حديثها كانها لم تسمع ذلك الاعتراض وقالت أن هذا المنزل لا أمان لنا فيه ولا سيما هذه الليلة فاذا اذن لى سيدي أتيت بالحداد فيعيد الى الباب اقفاله التى أمرت بانتزاعها ويضع الزلاج من وراءه

وبعد فهل يمنعك ذلك ياسيدى عن قبول ضيوفك حين يأتون فما عليهم إلا أن يقرعوا فيفتح لهم أليس ذلك خير من دخول من يشاء الى المنزل كما يشاء

ولم تكد تتم جملتها حتي طرق الباب بعنف فأجاب لاسقف ذلك الطارق قائلا ادخل

— ٣ —

ففتح الباب عنـد ذلك بجملته كانما الداخل قد صده بعنف شديد ودخل منه رجل عرفه القراء من قبل فهوجان فالجان

وقد ترك الباب مفتوحاً وتقدم أى جان بيده وكيسه على كتفه فارتعشت أخت الاسقف ورعبت الخادمة ونظر الاسقف الي جان محدقا وهو بملء السكينة وحاول أن يترحب به

ولـكن جان استند الى عصاه وبدأ الحديث قبل أن يخاطبه الاسقف فقال

اني ادعى جان فالجان أقمت في السجن تسعة عشر عاماً وخرجت منه منذ أربعة أيام وأتيت ماشياً من طولون ووجهتى بونتر اليه

واليوم بدأت المسير قبل شروق الشمس فاجتزت اثنتى عشرة مرحلة حتى دخلت فى المساء الى هذا البلد وقد دميت قدماى من المشى وخارت قواى من الجوع

وقد ذهبت من فورى الى الفندق فطردوني بسبب أوراق جوازى الصفراء التى لم يكن لى بد من اطلاع المحافظة عليها حسب النظام

فتركته وذهبت الى فندق آخر فعرفونى وطردونى فذهبت الي السجن فأبوا أن يقبلوبي فسرت الى ذريبة كاب فعضني ومزق

ثيابى وأبى قبولى كانه من الناس بل كأنه عرف من أنا

وقد ذهبت قانطاً الى الحقول فاربدّت السماء مؤذنة بالمطر فعدت الى المدينة باحثاً عن مأوى وكدت أنام على حجر معرضاً لبرد الهواء ومطر السماء

وهناك لقيتنى امرأة صالحة فارشدتنى الى منزلك وقالت لى اقرع هذا الباب وأنا الضمينة لك بالشبع والنوم

على انى لست من الفقراء فاني أملك مائة وتسعة عشر فرنكا وخمسة عشر سنتيما كسبتها في السجن بعرق الجبين وانى أدفع ثمن الطعام وأجرة النوم لانى لست من الفقراء كما قلت لك فهل تريد أن أبقى

فأمر الاسقف الخادمة ان تعد له مكانا على المائدة

فتقدم جان خطوة من المصباح بحيث عرض وجهه لنوره وأجاب الاسقف كأنه لم يفهم ما قاله للخادمة فقال

لقد قلت لك انى من أهل السجون واني أحمل جوازاً أصفر وهذا هو فانظر اليه

ان هذا الجواز يدعو كل من رآه معى أن يطردنى . . . ألا تعرف القراءة لا بأس أنا أعرفها فقدتعلمتها فى السجن اذ يوجد هناك مدرسة يدخل اليها من أراد من المسجونين

اسمع فانا اقرأ لك ما كتب في هذا الجواز

« جان فالجان . . . سجين قضى مدة سجنه . . سجن تسعة

عشر عاماً خمسة أعوام لسرقة ارتكبها والباقي لانه حاول الفرار أربع مرات ، ان هذا الرجل شديد الخطر يجب الحذر منه »

أسمعت ياسيدى أن جميع الناس رهبوا مني وطردونى أما أنت فهل تريد أن تقبلنى ... أعندك فندق . أتريد أن تطعمنى وتأوينى

فأمر الاسقف الخادمة أن تعد السرير في غرفة الضيوف

ثم التفت الى جان وقال له

أجلس يابنى فاننا على وشك العشاء وستنام بعد الطعام فانك محتاج الى الراحة

فأشرق وجه جان بعد الانقباض إذ أيقن انه سيأكل وينام لا محالة

وكأنه لم يصدق ماسمعه وجعل يحدث نفسه كالمجانين فيقول أحق ما أسمع . . أحق انك لا تطردنى . . أنا الشقى صاحب الجواز الاصفر ثم تقول لى اجلس يا بني بدلا من أن تقول لى اذهب أيها الشقى

لقد كنت اعتقد فى البدء أنك ستطردني كما طردنى الجميع ولذلك بدأت فقلت لك من أنا

لله ما أبرك تلك الساعة التى لقيت فيها تلك المرأة فأرشدتنى اليك وليحسن الله اليها كما أحسنت الىّ

أ أتعشى على مائدة وأنام على سرير كما يأكل وكما ينام الناس انك يا سيدتي من كرام الناس ؛ وأنا سأعطيك قدر ما تطلبه

دون مساومة

قل لى ماذا تدعى وما اسم فندقك كي أرشـد الناس اليك واليه فانك فندقى أليس كذلك

فابتسم الاسقف وقال له

بل إنى كاهن يا بني وهذا منزلي الذي أقيم فيه

فأشرق وجهه ببارق من الرجاء وقال

أنت كاهن . . اذن انك لاتسألنى عن الطعام . . نعم . . انك كاهن هذه الكنيسة وكان يجب أن أعرفك من ثوبك ولـكن الجوع أعمى بصيرتى

وكان يتكلم وهو يضع عصاه وجرابه فى زاوية الغرفـة وجوازه الاصفر فى جيبه ، ثم جلس على الكرسى بجانب الاسقف وقال له

انك من خيار الناس يا سـيدى ومن رجال الله وأخلق بك أن تكون قدوة للناس . . اذن انى لا أدفع شيئاً

— كلا فاحتفظ بمـالك . كم تملك أليس مائة وتسـعة عشر فرنكا كما قلت لى

— وخمسة عشر سنتيما

— كم اشتغلت فى كسب هذا المبلغ

— سبعة عشر عاماً

فتنهد الاسقف تنهداً عميقاً ومضى جان فى حديثه فقال

انى لم أنفق شيئاً من ثروتى فقد أنفقت في مدة سفرى كلها خمسة وعشرين سنتيما كسبتها بغسل مركبة فى الطريق

وكان يتكلم وهو ينتفض من البرد فنقل الاسقف كرسيه الى أقرب مكان من المستوقد ونظر الى الخادمة فقال لها

ان النور ضئيل فى هذه الليلة ، فأدركت الخادمة قصده فقد كان من عادته أن يضع على المائدة شمعدانين من الفضة حين يكون عنده ضيف وأسرعت فجاءت بهما ووضعتهما على المائدة بعد أن أنارت شموعهما

وقد أخذ جان يشكره وهو لا يعلم كيف يجد عبارات الشكر الذى كان ظاهراً فى عينيه وبين ثنايا وجهه

وقد أسكرته اضاءت الشموع فقال : أتزين من أجلى كل هذه الانوار مع اني لم أكتمك شيئاً من أمري وقلت لك من أين أتيت واني من الاشقياء

قال انك لم تكن فى حاجة الى اخبارى بأمرك فليس هذا منزلي بل هو بيت الله ، وان صاحب هذا البيت لا يسأل الداخل اليه عن اسمه بل عن شقائه ولقد خلت انك تعب وانك جائع فكل واشرب واسترح فانك أتيت على الرحب ولا تشكرني لصنيعي فهذا بيت كل جائع ومأوى كل شريد وكل ما تجده هنا فهو لك

وبعد فما أنا فى حاجة الى معرفة اسمك فقد كنت أعرفه من قبل أن أراك

— أحق انك تعلم باني أدعى ، . .

— نعم فانك تدعى أخى وانما المؤمنون اخوة

فدهش جان لما سمعه وقال لقد دخلت الى هنا يا سيدى الكاهن وأنا أشعر بأن الجوع قاتلى ولكن ماسمعته من حديثك ذهب بجوعى

ألعلك شقيت كثيراً فى سجنك

— وكيف لا أشقى يا سيدي والقيد فى رجلى ليل نهار وأنا أنام على الارض وأقاسى آلام الحر والبرد وعناء الشغل الشاق وضرب العصي فاذا تململت ضوعف الضرب واذا شكوت ضوعف القيد وذلك مدة تسعة عشر عاماً

وكفى اني دخلت السجن فتياً وخرجت منه وأنا أكاد أبلغ الخمسين وكل ما أعددته لمستقبل أيامي هذا الجواز الاصفر الذي أريتك إياه ، فأى عيش هذا أليست الكلاب أفضل منى

— لا بأس يا بنى فقد شقيت فى هذه الدنيا وستنعم فى الآخرة اذا تبت توبة صادقة وندمت فان الله يحب التائبين . أما اذا خرجت من السجن حاقداً ناقماً فانك تجازى فى الدارين

وقد حضر الطعام فلم يعد جان يفقه شيئاً من مواعظ الاسقف وجعل يلتهم الطعام وهو لا يلوى على أحد

— ٤ —

وقدا نصرف الاسقف الي خدمته فكل ما فرغ صحنه ملأه وكل ما فرغت كأسه من خمر معتقة لم يكن هو نفسه يشرب منها لاعتقاده انها غالية الثمن فيخص بهاالضيوف

وما زال يلح عليه بالطعام والشراب حتى شبع وارتوى ، ورأى الاسقف ان النعاس قد ران على جفنيه فأخذ المصباح ومشى امامه الى الغرفة التى أعدها له ، وهناك ودعه داعياً له بطيب الرقاد وقال له

غداً قبل انصرافك تشرب شيئاً من ابن بقرتنا وتأخذ ما تحتاج اليه من الزاد كي لاتصاب بما أصبت به اليوم من الجوع

فنظر جان اليه نظرة وحشية وقال له : اذن لقد صحت عزيمتك على أن تأذن لى بالمبيت عندك ألم يخطر لك انى قد أكون من القتلة

فأجابه قائلا : ان حسابك يومئذ مع الله

ثم تركه وانصرف فانطرح جان على السرير وهو بملابسه لفرط ما لقيه من التعب في ذلك اليوم

وبعد نصف ساعة كان جميع من في المنزل نياماً وسادت

السكينة وعند انصاف الليل صحا جان من رقاده وهي عادة له اكتسبها من اقامته في السجن

كان جان ابن عائلته فقيرة من الفلاحين مات أبوه وأمه عنه وهو في عهد الحداثة فكان موت أمه بالحمى ومات أبوه أثر سقوطه من شجرة

ولم يبق له من عائلة غير أخت أكبر منه ترملت ولها سبعة أطفال ، وكانت هـذه الاخت قد كفلت جان حين تيتم فلما مات زوجها كان له من العمر خمسـة وعشرون عاما فناب عن صهره باعالته الصغار فكان يشتغل النهار كله أشق الاشغال ثم يعود إلى المنزل فيتعشى وينام

وكان شديد الرفق بأبناء أخته كثير الحنو عليهم فكان يحرم نفسه جميع ملاهي الشـباب في سبيلهم فان كل ما كان يكسبه مع أخته لم يكد يكفي لسد حاجاتهم

وقد اتفق في يوم بارد من أيام الشتاء انه مر أسبوع لم يستطع أن يكسب شيئاً وأعوزه الخبز فخرج من المنزل قانطاً والصغار يبكون من جوعهم الى أن وصل الى مخزن بائع خبز

وقد نظر من خـلال الزجاج فلم يجد أحـداً في المخزن فان صاحبه كان قد دخل الى الفرن في بعض الشؤون . ولم يكن جان من أهل السرقات غير أن بكاء أولاد أخته أضاع صوابه فكسر الزجاج وانتشل رغيفاً وسار به وهو لا يعـلم ما خبأت له الاقدار

وقد سمع صاحب المخبز صوت كسر الزجاج فركض مسرعاً ورأى السارق فتعقبه حتى أدركه فأخذ منـه الرغيف وسلمه الى البوليس ، وبعد بضعة أيام حوكم على جريمةالسرقة والكسر فحكم عليه بالسجن خمسة أعوام فى طولون

ثم أرسلوه والقيـد فى عنقه فوصل اليها بعـد مسير سبعة وعشرين يوماً وهناك استبدلوااسمه بنمرةوأمحي من سفرالوجود فماذا أصاب أخته وأبناءها ومن الذى يعولهم بعده

انهم تفرقوا بل فرقهم الجوع والشقاء فبرحوا تلك القرية ونسيهم كل من فيها حتى ان جان نفسه على شـدة أشفاقه عليهـم وتعلقه بهم مالبث بعـد بضعة أشهر أن نسيهم فاصبح جرمه أثراً

ولقد رأى بعض من كان يعرف هذه العائلة أخته في باريس على أسوأ حال وليس لها من أولادها السبعة غـير طفلها الصغير دون أن تعلم شيئاً عما جرى لاولادها

فكانت هي تشتغل باحدى المطابع في طي الورق وابنهايذهب الىالمدرسةفكرتالايام وتوالت السنون دون أن تجد أولادهـا ودون أن يجدوها

أما جان فقد أقام في سجنه على انكد حال إلى أن جاء دوره بالهرب وذلك فى آواخرالسنة الرابعة منسجنهفان السجناء هناك يتعاونون على الفرار ولهـم نظام خاص به فمن جاء دوره بالهرب وجب على جميع رفاقه أن يمهدوا له أسبابه

وقد تمكن من الفرار فهام يومين في الحقول ونال حريته كما كان يتوهم ، وبئست حرية يفضلها أعمق سجن فانه كان يلتفت منذعراً فى كل لحظة ويرتعش لاقل حركة ويخاف حتي من ظله ويخشى أن يمر في شارع أو يدخل فى زقاق أو يلجأ الى بيت وكيف يعيش على هذه الحال ، ولذلك لم يمض يومان على هربه حتى قبضوا عليه وهو ملقى على الطريق من الجوع

وقد عقدوا مجلساً بحرياً لمحاكمته فحكم عليه باطالة مدة سجنه ثلاثة أعوام بحيث أصبحت المدة كلها ثمانية

وفى السنة السادسة جاء دوره بالهرب أيضاً فحاول الفرار ولكنه قبل أن يتمكن منه قبضوا عليه وهو مختبيء في ظل سفينة فقاوم الجنود مقاومة عنيفة عدها المجلس من قبيل العصيان فحكم عليه باطالة مدة سجنه خمسة أعوام فصارت المدة ثلاثة عشر عاماً

وفى السنة العاشرة جاء دوره بالفرار أيضاً فما أفلح وحكم عليه بزيادة ثلاثة أعوام

وفي السنة الثالثة عشرة زيدت مدة سجنه ثلاثة أعوام أيضاً لنفس الذنب فلم يعد بعدها الى الفرار

وقد أتم مدة سجنه وأطلق سراحه سنة ١٨١٥ وهو قد دخل الى السجن سنة ١٧٩٦ فيكون قد سجن تسعة عشر عاماً بذنب كسر زجاج وسرقة رغيف

وهو قد دخل الى السجن باكياً مرتعداً قانطاً نخرج منه كالح الوجه ولكنه ثبت الجنان فما الذى طرأ على نفسه فاحدث فيها هذا الانقلاب

هذا الذى نحاول كشفه في الفصل التالي اذ يجب على الهيأة الاجتماعية أن تعرف هذه الاشياء فهي التي أوجدتها

٥

كان جان فالجان كابسطناه فى غير هـذا المكان جاهـلا أمياً ولكنه لم يكن من أهـل البلاهة ، بل أنه كان زكي الفؤاد وقد زادته المصائب زكاء فان جلد السياط وثقل القيد وظلمة السجن وشقاء العمل فى وهج الشمس وتحت العواصف كانت تدعوه الى التفكير فى أمره حين يأتى زمن الرقاد

وكان يحاكم نفسه ويحكم على نفسه فيعترف أنه غير برىء وأنه لم يعاقبْ ظلماً ويعترف أيضا انه قد أتى أمراً منكراً مذموماً وأنه لو التمس من الفران أن يعطيه ذلك الرغيف الذى سرقه لما بخل عليه به

ويقر أنه فى كل حال كان يجب عليه أن ينتظر العون اما من ايجاد عمل يرتزق منه أو من مراحم الناس اذا أعوزه العمل وان من يتذرع معتذراً عن السرقة بحجة الجوع لا يجد من يقبل له عذراً بين العاقلين

وذلك أنه نذر أن يموت جوعاً وان المرء يستطيع ان يصبر

طويلا على مضض الجوع فكان خيرا له لو صبر مع الاطفال من ان يسرق ويخرج من الشقاء من هذا الباب

وعلى الجملة فقد كان يقر ويعترف أنه من المخطئين وأنه لا عذر له فى السرقة التى ارتكبها

ثم يسأل نفسه فيقول : ترى أكنت وحدى المخطىء فيما كان أما كنت عاملا فما وجدت عملا ، اما كنت مجتهداً فاعوزني الخبز . ألم يكن العقاب الذى عوقبت به همجيا ، ألم يكن جور القضاة في الحكم على أشد من جورى في سرقة الرغيف ، ألم يبلغوا غاية العسف فى اطالة مدة سجنى فجعلونى دائناً بعد أن كنت مديناً

وقد حكم على تلك الهيأة التى حكمت عليه فحكم عليها بالكره الابدى وحملها تبعة كل مالقيه من الشقاء على أنه يناقشها يوماً الحساب ووازن بين اساءته إليها بسرقة رغيف وكسر لوح من الزجاج وبين اساءتها إليه بالسجن تسعة عشر عاماً وأفناء شبابه فى ظلمات السجون فوجد الفرق بعيدا

ولم يكن الامر قاصراً على من يمثلون الهيأة بل ان ظلمها قد تناول أفرادها فانى لا أجد بينهم الا من ينظر الي بعين المحتقر ويقذفنى من حالق

وقد تدرج باحكامه حتى بات يعتقد أن الحياة حرب وأن هذه الحرب قد دارت دوائرها عليه وأنه لا سلاح له غير الكره فعول على أن يشحذ هذا السلاح فى السجن وعلى أن يقاتل به حين خروجه

وكان يوجد فى طولون مدرسة يعلمون فيها من أراد أن يتعلم طائعا مختاراً

فدخل الى هذه المدرسة وهو فى الاربعين من عمره فتعلم القراءة والكتابة والحساب وشعر أن هذا العلم قد زاد ذكاءه وان ذكاءه قوى فيه عاطفة الكره

ويسؤنا أن نقول أنه لم يقتصر في حكمه على الهيأة بل تطرق من ذلك الى الحكم على العناية التى أوجدت الهيأة فحكم عليها بما أوحاه اليه شقاؤه

وعلى ذلك فقد كانت نفسه فى مدة تسعة عشر عاماً تعلو وتنخفض في حين واحد فينفذ اليها النور من جهة والظلام من جهة أخرى ، ولم يكن مفطوراً على الشر كما علمت من بدء حكايته بل انه حين دخوله السجن كان لا يزال طيب السريرة . الى أن حكم على الهيأة فشعر انه بات من أهل الشر وحكم على العناية فشعر انه من أهل الزندقة والالحاد

وهنا مجال للمتأمل فان الله خلق المرء من أهل الخير ولكن الرجل جعله من أهل الشر

ألم يكن يوجد فى نفس جان فالجان مادة مستمدة من الله لو اتصل بها الخير و نفذ اليها لاتسعت وامتد نورها فلا يتمكن الشر من إطفائها

على أن أعظم المفكرين لو رأى ذلك المنكود فى طولون جالساً فى أوقات الراحة يفكر منبسط اليدين وطرف قيده داخل فى جيبه كي يمنعه عن جره وهو منقبض الصدر مقطب الحاجبين ينظر الى الارض نظر الحزين الكئيب والى السماء نظرة القانط الناقم لما وسعه إلا أن يشفق على هذاالمريض الذى لم تكن علته إلا من الشرائع

ولكنه لا يصف له علاجاً بل يحول نظره ويفعل ما فعله دانتي حين محا عن باب جهنم تلك الكلمة التى كتبتها يد الله على جبين كل انسان وهي الرجاء

وعلى الجملة فان جان فالجان خرج من سجنه بعد اقامته فيه ذلك العهد الطويل وقد اكتسب بفضل الجور عليه فى سجنه صفتين لم تكونا فيه احداهما أنه إذا أراد الاساءة بادر اليها مسرعاً دون روية وأقدم عليها دون أن يعمل فكره في نتائجها ناقماً ثائراً لنفسه عن كل ما عاناه

ثانيهما أنه كان يقدم على الشر أيضاً بعد اعمال الروية بأفكار فاسدة لم يولدها فى ضميره المضطرب غير شقائه المتصل ولذلك كان شديد الخطر كما كتب عنه فى جوازه الاصفر

٦

أيها الناس ... رجل في المياه ... انه يغترق ... انجدوه ...
مضت السفينة فى سيرها ولم يكترث ربانها للنداء ، عصفت الرياح...
ان للسفينة طريقاً لابد لها من اجتيازه ... استمرت السفينة في
سيرها ولم يفد الغريق النداء ، ولقد توارى الرجل ثم ظهر فوق
المياه فجعل يسبح ويبسط يده مستغيثاً فلا يسمعونه

ان السفينة كانت تعبث بها العاصفة ورجالها يشتغلون ويعملون
على انقاذها والمسافرون مشغلون بما هم فيه من المخاوف فلم يروا
رأس الرجل المستغيث فانه كان يشبه نقطة صغيرة فى ذلك
المحيط المظلم

صاح صياح القانطين ، وقد توارى عنه شبح السفينة . . .
انه كان منذ هنيهة فيها ... انه كان من بحارتها ... انه كان يسير
مثلهم على ظهرها فيتنشق الهواء ويأخذ حظه من الحياة ومن
شعاع الشمس

والآن ماذا حدث انه سقط منها ... ان قدمه زلت فهوى
الى الاعماق . .. ان كل شيء قد انتهى

هوذا المنكود يسبح فوق المياه الهائلة فتتقاذفه الامواج
الثائرة باضطراب الهواء فاذا غاص تحتها تقطع أنفاسه ولا يرى
غير الظلمات . وإذا صعد فوقها تقاذفته الامواج فتلقفته موجة
موجة كما تدفع الكرة للصوالجة فتتلقفها الرجال

انها تغل رجايه وتجذبه اليها وتهزأ بنزعه وأن جميع تلك المياه استحالت الى كره

انه يدافع بشهامة القانطين فيسبح ويناضل فاين هي السفينة انها هناك لا يكاد يراها لتواريها فى ظلمات الافق ... يرفع عينه الى السماء فلا يرى غير الغيوم المربدة ... ينظر إلى ما حواليه فلا يرى غير الامواج الثائرة

يوجد ملائكة تحوم فوق شقاء الانسان كالطير يحوم فوق كائنات الارض فما عساها تصنع

انه مدفون بين المياه وبين السماء وستكون الواحدة قبره والاخرى كفنه

هبط الظلام وهو يسبح من عهد بعيد ... خارت قواه ولم يبق رجاء في السفينة فقد توارت عن الانظار ... استنجد واستغاث فلم يسمعه منجد ولم يحفل به مستغيث . توارت السفينة فأين النجدة ، ثارت الامواج وأين النجاة ... ذهب الرجال فاين الله

هذا هو شأن من يسقط فى هوة المجتمع الانسانى فيا ويل الساقط منها ويا ويلها من ذلك الساقط

٧

عندما دنت ساعة خروج جان فالجان من السجن وسمع بأذنه صوت سجانه يقول

انك حر

شعر أن نور الحياة قد نفذ اليه . غير أن هذ النور مالبث ان تضاءل ، فقد كان يرجو أن يرى حياة جديدة بعد حريته فما عتم ان رأى أنها حرية مقرونة بالجواز الاصفر

وكان قد حسب أن ما كسبه مدة سجنه من شغله يبلغ مائة وسبعين فرنكاً ولكنهم عند الحساب حسبوا عطلة أيام الآحاد و لاعياد فنقص حسابه نحو أربعة وعشرين فرنكا ، فلم يعلم سر هذا النقص وأيقن انهم سرقوه

ففي يوم خروجه من السجن لقي وهو يطوف عمالاً يشتغلون بنقل صناديق الليمون فعرض خدمته وقبلوه واشتغل كل يومه ، وكان قد سأل أحد العمال عن مقدار الاجرة فى اليوم فقالوا له ن أجرة كل عامل فرنكان . فلما جاء وقت الحساب فى المساء لم ينقده صاحب الليمون غير فرنك واحد

وقد اعترض وألح إلى أن غضب صاحب المعمل وقال له احذر أن تعود إلى السجن

فخرج ناقماً وهو يعتقد أيضاً ان هذا الرجل سرقه كما سرقته الهيئة الاجتماعية والحكومة وما الفرق بين السرقتين إلا أن هذه سرقة صغرى وتلك سرقة كبرى

ان الخروج من السجن لا يعد حرية وكفى ما لقيه من أصحاب الفنادق بسبب جوازه الاصفر

ولنعد الي ما كنا فيه من سياق الحديث فلقد صحا جان فالجان من رقاده حين انتصاف الليل لانه تعود أن يصحو فى مثل هذه

الساعة ثم لان فراشه كان ناعماً وهو قد نسي عادة النوم على الاسرة

وكان قد نام أربع ساعات فاستراح من تعبه وفتح عينيه فلم يجد غير الظلمات فاطبقها وعاد الى النوم ، ولكنه لم يستطع الاغفاء فجعل يفكر فى أمره فتزاحمت الافكار فى مخيلته وهي مضطربة متقطعة ومع ذلك فقد كان يخطر له بينها خاطر كان يتمكن من مخيلته ويطرد منها كل ما كان يزدحم فيها من الافكار المتفرقة

أما هذا الخاطر فهو انه رأى على مائدة الاسقف أواني من الفضة يبلغ ثمنها على الاقل مائتي فرنك أي ضعف ما يملك أي انه يكسب بليلة ضعف ما كسبه فى مدة تسعة عشر عاماً

وقد بقي يفكر فى أمر هذه الاواني ثلاث ساعات ثم نهض من سريره فأخذ جرابه وعصاه وعاد الى الجلوس فوق سريره تائهاً في مهامه التفكير ، الى أن دقت الساعة فانتبه من ذهوله فوقف وهو يقول

لنذهب

ولكنه لبث فى موقفه حائراً متردداً ثم أصغى فلم يسمع غير السكون ومشى وهو يخفف الوطء الى النافذة ففتحها فلم يجد الظلام كثيفاً لان القمر كان بدراً يختبئ ويظهر بين الغيوم فينير الكائنات بنور يشبه نور الفجر قبل انبثاقه

وكانت هذه النافذة تطل على الحديقة وهي لا قضبان حديدية

فيها بحيث يستطيع الخروج منها ، ونظر الى الحديقة فاحصاً فوجد
أن سورها المتصل بالشارع منخفض يسعه أن يتسلقه بملء السهولة
وعند ذلك تجسم ذلك الخاطر فى مخيلته فلم يعد يستطيع كبح
جماحه فألقى جرابه على السرير ومشى الى غرفة الكاهن بعد أن
أخرج من جرابه آلة لفتح الاقفال

غير انه لم يحتج الى هذه الآلة فان باب غرفة الاسقف كان
مفتوحاً فدخل اليها وذهب منها الى غرفة المائدة فأخذ شمعدانين
من الفضة ، وعاد في الطريق التى جاء منها فوضع الشمعدانين فى
الجراب ثم حمله على كتفه وأخذ عصاه فوثب من النافذة الى
الحديقة وتسلق السور فوثب منه الى الشارع وثوب النمر المفترس
وأركن الى الفرار تخفيه ظلمات الليل

٨

وفى صباح اليوم التالي عند ما أشرقت الشمس خرج
الاسقف الى الحديقة يتنزه حسب عادته وفيما هو على ذلك أقبلت
اليه الخادمة منذعرة وسألته قائلة هل تعلم يا سيدى أين الاواني
الفضية

قال انك تركتها أمس على المائدة

قالت رباه اني لم أجدها ولا شك ان رجل الامس قد سرقها

وقد تركته واسرعت الى الغرفة التى بات فيها جان ثم عادت مهرولة وهى تقول

مولاى أن الرجل قد انصرف والاواني سرقت

فاطرق الاسقف هنيهة مفكراً ثم نظر اليها وقال أتحسبين يا ابنتي أن هذه الاواني لنا

فلبثت الخادمة جامدة منـذهلة لا تعلم ما يعنيه ، وعاد الاسقف الى الحديث فقال

كلا يا ابنتي أنها ليست لنا بل هى للفقراء ومن هـذا الرجل الذى سرقها اما هو من الفقراء؟

فتنهدت الخادمة وقالت وقد ساءها هذا الجواب

ان هـذه الاواني ليست لي ولا لاختك بلى هي لك فبماذا تأكل وبماذا تستنير بعد الآن

قال انى استنير بالمصابيح العادية وآكل بصحون الخزف

— إنها تنكسر

— آكل بصحون من حديد

— انها كريهة الرائحة

— إذن آكل بصحون من خشب

وبعد هنيهة كان الاسقف يأكل طعام الصباح على نفس المائدة التى أكل عليها أمس جان فالجان

وقد أوصى أخته والخادمة أن لا تذيعا خبر هذه السرقة،

ما الخادمة فلم تكن راضية عن شيء مما كان يظهره الاسقف من مكارم الاخلاق فكانت تسير فى غرفة المائدة ذهاباً وإياباً دون ان تعلم ما تصنع وتقول

أرأيتم من يضيف فى منزله لصاً سفاكاً خارجاً من سجن قام به نصف عمره ، وانى أحمد الله لاقتصاره فى اساءته على السرقة

وقبل أن تتم حديثها طرق الباب

فقال الاسقف ادخل

ففتح الباب ودخل ثلاثة رجال حانقين مغضبين وهم قابضون على رجل لم يكن يحاول الدفاع

أما الثلاثة فقد كانوا من الجنود وأما الرجل الاسير فقد كان جان فالجان ، وقد عرف الاسقف لاول وهلة ماجرى ودنا من جان فالجان وقال له

أحمد الله لعودتك يا بني فقد كنت أعطيتك مع الاواني الفضية شمعدانين من الفضة أيضاً فلماذا لم تأخذهما

فنظر جان الى الاسقف نظرة لا يصفها لسان ولا يصورها جنان ودنا أحد الجنود من الاسقف فقال له

إذن لقد كان هذا الرجل يقول الحق فقد لقيناه فى الطريق وهو يسير سير الهارب فقبضنا عليه ووجدنا معه هذه الاواني الفضية . . فقاطعه الاسقف وهو يبتسم

نعم أنا الذى أعطيته إياها وقد كان نائماً عندى أمس فلماذا

قبضتم عليه واهنتموه هذه الاهانة

قال لاننا لم نكن نعلم حقيقة امره وكانت هيأته تدل على محاولته الفرار . والآن أتأمر باطلاق سراحه

قال دون شك

فتركه الجنود وتراجع جان الى الوراء فقال بصوت أجش كمن يتكلم في حلم

أحق أنهم يتركونني

فأجابه أحد الجنود قائلا : ألا ترى اننا تركناك

أما الاسقف فانه أخذ الشمعدانين عن المائدة وقال له

لقد وهبتك أمس هذين المصباحين ونسيت أن تأخذهما فخذهما الآن انهما لك ، فأخذهما جان وهو يرتجف كاوراق الخريف ويحسب نفسه من الحالمين فان مثل هذه الامور لا يمكن أن تكون فى يقظة فلم يستطع أن ينوه بلفظة كانما عقد لسانه

أما الاسقف فانه ابتسم له أيضاً وقال

اذهب بسلام يابنى وعند ما تعود الينا مرة ثانية فلا تتجشم مشاق الدخول من الحديقة فان باب منزلى مفتوح في الليل وفى النهار

ثم التفت الى الجنود وقال لهم : وأنتم فاذهبوا

فانصرف الجنود وبقى جان وهو يكاد يغمى عليه فدنا الاسقف منه وهمس فى أذنه قائلا

لاتنس ما وعــدتني به من انك ستستعين بما لديك فتعيش عيشاً منزهاً عن العيوب

أما جان فانه لبث فى موقفه منذهلا فانه لم يذكر انه وعـد الاسقف مثل هذه الوعود

ورأى الاسقف ما كان من انذهاله فقال له

ياجان فالجان بل ياأخي انك لن تكون بعد الآن من أهــل الشر باذن الله فقد اشتريت نفسك وبددت عنها ما كان يكتنفها من الظلمات فسر فى طريق الخير وقل رب اهدنا الصراط المستقيم

٩

برح جان فالجان المدينة وجعل يسير مسرعاً فى الحقول سير الهائمين وهو لايعلم الى أين يسير ، وقد هام كل ذلك الصباح على وجهه دون أن يأكل ولـكنه لم يكن جائعاً ؛ بل كان يشــعر بغضب شديد وحقد أشد دون أن يعلم على من يغضب ومن الذي أثار فى قلبه هذا الحقد

وفيما هو على هــذه الحال وقد ضاقت به الدنيا على رحبهــا لشدة انقباض نفسه سمع غلاما يسير وراءه فى تلك الحقول وهو يغني ،وكان هذا الغلام لايتجاوز الثانية عشرة من عمره وهو سائر من قرية إلى قرية و بيده قطعة فضية من النقود كان يلعب بهــا من حين إلى حين فيضعها على ظفر ابهامه وينقفها فتصعد مرتفعة ثم تهبط الي الارض فيعود الى اللعب بها ثم يعود الى الغناء ، وقد

تقفها آخر مرة فارتفعت ثم سقطت فوقعت على اطارها وتدحرجت حتى انتهت حيث كان جان فالجان فوضع رجله فوقها

وكان الولد يراقبها فاسرع الى جان وقال له بملء الثقة

أزح رجلك ياسيدي

فسأله جان قائلا

ماذا تدعى

— جرفيه

— اذن امض فى شأنك

— ولـكن قطعة النقود ياسيدى تحت قدمك

فاطرق جان برأسه دون أن يجيب

وعاد الغلام الى المطالبة بقطعته فـكان جان محدقاً بنظره إلى الارض كانه لايسمع مايقوله الغلام ، فامسك الغلام بطرف ثوبه وهزه كي ينبهه من ذهوله وهو يلتمس منه ويتوسل اليـه أن يزيح رجله فلا يفعل . ثم جعل الغـلام يبكي فرفع جان رأسه وكانت عيناه مضطربتين فجعل ينظر الى الغلام نظرات تشف عن الانذهال ، وبعد ذلك أخذ عصاه وقال بصوت رهيب

من هذا

فاجابه الغلام قائلا

هذا أنا ياسيدي . . . أنا جرفيه فازح قدمك ياسـيدى كى اخذ قطعة النقود

فهز جان عصاه ونظر اليه نظرة هائلة فقال

أتريد أن تذهب ناجياً

فخاف الغلام تلك النظرات وهرب منه قانطاً وهو يشهق من يأسه بالبكاء

وقد سمع جان صوت شهيقه وهو منذهل مأخوذ فلم يأبه له فى البدء وتوارى الغلام عن الانظار ، ولبث جان في موقفه إلى أن أذنت الشمس بالمغيب دون أن يتحرك وذلك من عجائب الذهول ، حتى اذا استفاق من ذهوله شعر بالجوع وأراد المسير فرأى قطعة النقود تحت قدمه فالتقطها وجعل ينظرفيها ، إلى أن تذكر أمرها فالتفت باحثاً عن الغلام فلم يره فاسرع راكضاً فى أثره دون أن يهتدي اليه

ثم وقف وذكر اسم الغلام فجعل يناديه بأعلى صوته فلا يجيب لنداه غير الصدى . وقد فاته لذهوله ان الحادثة جرت فى الصباح وان الشمس الآن أخذت بالمغيب ، فعاد إلى السير مسرعاً وهو لا ينقطع فى مناداة جرفيه الصغير دون جدوى ؛ حتى ان ذلك الغلام لوسمع نداءه لما لباه لما وجده من الرعب فى نظراته النارية

وفيما هو على هـذه الحال لقي كاهناً يسير فى طريق معارض لطريقه فاستوقفه وسأله قائلا : هل رأيت ياسيدى الكاهن غلاماً في طريقك

قال كلا

قال انه غلام يدعى جرفيه

قال انى لم أر أحداً فى طريقى

فأخرج جان فرنكين من جيبه فدفعهما الى الكاهن وقال له أرجوك ياسيدى الكاهن أن تتصدق بهما على الفقراء ...

أما الغلام الذى سألتك عنه فهو من الفلاحين لا يتجاوز عمره اثنتى عشرة عاما وهو يحمل قدراً كما أذكر

قال لم أره فى طريقي

قال ولكنك ألا تعرف غلاما في هذه القرية يدعي جرفيه

قال كلا لا يوجد فيها من يدعى بهذا الاسم وقد يكون غريبا مر بها فان ذلك يتفق كثيراً

فأخرج جان من جيبه ريالين أيضاً فدفعهما الى الكاهن وقال له أرجوك أن تتصدق بهذين الريالين أيضاً

ثم اتقدت عيناه ببارق يدل على تضعضع صوابه وقال اقبض علي ياسيدى الكاهن فأني من اللصوص

فتركه الكاهن وقد أرعبته نظراته وولي عنه هارباً إذ حسبه من المجانين

ومضى جان فى سبيله فكان تارة يركض وتارة يقف فيقول ويل لي من شقي وويح لى من هذه النفس الساقطة فكيف استغفر عن زلاتها

وقد حيرته كلمات الاسقف وفعله فانقلب من حال الى حال وأقام يبكي بدموع غزيرة

وفي الساعة الثالثة بعد انتصاف الليل كان راكماً عند باب منزل الاسقف يصلي وهو لا يعلم كيف عاد الى هناك

***

فى سنة ١٨١٨ اشتهرت فى مدينة م . صناعة تقليد الكهرباء السوداء الانكليزية والخرز الاسود الالماني بعد بوارها بسبب غلاء موادها الاصلية

ففى أواخر سنة ١٨١٥ أقبل رجل لم يكن يعرفه أحد فاستوطن تلك المدينة وخطر له أن يستبدل صمغ الملك بصمغ الصنوبر فى هذه الصناعة وغير ذلك مما استغنى به عن المواد الخارجية فهبط سعرها هبوطاً عظيما وراجت الصناعة في المدينة فارتفعت أجور العمال وانتظم سير المعامل وتناقصت أسعار الكهرباء والخرز فزادت مقطوعيتها وتضاعفت أرباح صاحب المعمل ثلاث مرات

فلم يمر بذلك الرجل ثلاثة أعوام حتى أصبح من الاغنياء وأفاد كل من كان يشتغل معه من هذه الثروة . وكان غريباً كما قدمناه فلم يعلم أحد شيئاً من أمره

وقد رووا عنه انه حين جاء إلى البلد لم تكن ثروته تتجاوز بضع مئات من الفرنكات فكان له فضل عظيم اذ أدار معمله بهذا المال القليل وربح بزمن قريب هذا الربح الجزيل ، ومما رووه انه حين قدومه لم يكن لديه غير الثوب الذى يلبسه وكان يتكلم

بلهجة العمال ويظهر انه حين دخوله الى المدينة دخل اليها فى إحدى ليالي دسمبر المظلمة وهو يتأبط عصا كثيرة العقد ويحمل على كتفه جرابا من الجلد

وقد اتفق فى تلك الساعة حدوث حريقة فى منزل رئيس الجندرمة فاقتحم الرجل النار مخاطر بنفسه وأنقذ ولدين للرئيس من الموت فلم يسأله عن جوازه

***

كان هذا الرجل يبلغ الخمسين من العمر وكل ما فيه يدل على الجد والاهتمام ومكارم الاخلاق ، وقد أصبحت تلك المدينة بفضله مداراً للاعمال فان أسبانيا التى تستهلك كثيراً من الكهرباء السوداء كانت تشترى من معمله مقادير عظيمة فى كل عام بحيث أصبح هذا الرجل يزاحم بمعمله معامل لندرا وبرلين

وكانت أرباحه عظيمة إلى حد انه تمكن فى العام الثاني من بناء معمل كبير قسمه الى قسمين فجعل قسما للنساء وآخر للرجال

وبات هذا المعمل كانه خير مأوى للجياع اذ لم يأته فقير الا وجد به عملا وباباً للارتزاق

ومن مآثر الاب مدلين انه كان يشترط على كل رجل من عماله أن يكون حسن الارادة وعلى كل إمرأة من اللواتى تشتغلن فى المعمل أن تكون طاهرة الاخلاق ، وانما جعل معمله قسمين كي يفرق النساء عن الرجال فلا يفسد الرجال أخلاقهن

وكان شديد القسوة فى هذا الشأن دون سواه وماخلا ذلك فقد كان من أشد أهل التسامح فى جميع الشؤون

وعلى الجملة فقد كان قدومه خيراً على أهل تلك المدينة فكثرت خيراتها لكثرة موارد الرزق وبات لكل مجتهد فيها نصيب

على انه من غريب أمر هـذا الرجل أنه على كثرة أرباحه كان يظهر أنه يهتم بغيره أكثر مما يهتم بنفسه

فقد ذكروا أنه فى سـنة ١٨٢٠ لم يكن له فى بنك لافيت أكثر من ٦٣٠ ألف فرنك

ذلك أنه قبل أن يقتصد هذا المبلغ أنفق مليونى فرنك عى المدينة وعلى الفقراء من أهلها اذ بنى مستشفى كبيراً عين له دخلا خاصاً وأنشأ مدرسـتين للذكور والاناث ينفق عليهـما من ماله وبنى ملجأ للاطفال وآخر للعجزة وصـيدلية تعطي الدواء مجاناً لكل فقير إلى غير ذلك من الاعمال التى لم يكن يقدم عليها أحد فى البلاد الفرنساوية في ذلك الحين

وكان الناس يقولون عنه فى ابدء « أنه رجل يتطلب الثروة من وراء هذه الاعمال » فلما نال ماأراد من الثروة جعلوا يقولون « أنه لايريد بحسناته غـير نيـل الشهرة أو أنه يلتمس النعمى فى الآخرة لشدة تمسكه باهداب الدين »

والحق أنه كان شديد التمسك بدينـه فلا يمر به يوم دون أن

يذهب إلى الكنيسة عند الفجر فيصلى بملء الخشوع

وقد اشتهرت أعماله اشتهاراً عظيما حتى لقد أزيع فى أواخر سنة ١٨١٩ أن الملك سيصدر أمره بتعيينه محافظاً على المدينــة . وكانت هذه الاشاعة صادقة فقد عرض عليه هذا المنصب الرفيع ولكن رفضه فى اليوم التالى

وفي ذلك العام عرض اختراعه في المعرض الصناعى فانعم عليه الملك بوسام جوقة الشرف) ولهج أهل المدينة بهذا الانعام فقالوا أنه لم يرفض منصب المحافظ الا لطمعه بالوسام ، فكان من نتيجة ذلك أنه رفض الوسام كما رفض المنصب

الى أن حار الناس فى أمره ولم يعلموا حقيقة قصده من احسانه العظيم فلم يعــد الاشرار يعملون على الحط من كرامتــه واكتفوا بالقول أنه رجل افاق

على أنهم أجمعوا بعد خمسة أعوام من قدومه أنه أكمل الناس مروءة وأجلهم غاية ولا سـيما العمال منهـم فقــد كانوا يجلونه ويحترمونه الى حد يشبه العبادة

وقد اتفقوا جميعهم وتألف وفد منهم ذهب اليه ملتمساً أن يقبل منصب المحافظة . فلم يجد بداً بعد ذلك الالحاح من الامتثال وأصبح الاب مدلين يدعى حضرة المحافظ

***

على أن هذا المنصب الجليل لم يدعه إلي تغيير شيء من عاداته

بسيطة فكان يأكل وحـده وأمامه كتاب مفتوح يطالعه وهو يأكل ، وكان له مكتبة جليلة الفائدة فكان يكتسب منها ويتثقف بها وقد ظهرت نتائج المطالعـة عليـه فى وقت قريب فرق حديثه ولطفت تعابيره وخرج عن حدود العوام ،

وكان يتلهى بالصيد حين تسنح له الفرصة فما روى عنه مرة أنه أخطأ الغرض أو قتل حيوانا داجنا أو طيرا لا يستطيع الدفاع

ومع أنه تجاوز عهد الشباب فقد كانوا يروون عن قوته ما يعد من قبيل المبالغات مثل قولهم أنه يحمل جوادا ويقبض على الثور الهارب من قرينه فيمنعه عن الحركة الى غير ذلك مما كان البعض يشككون فيه

أما الذى لم يكن يرتاب فيه أحد فهو انه كان يخرج من منزله وجيوبه ملاى بالمال ويعود اليه وهى فارغة وهذا شأنه كل يوم مع الفقراء

وما زال الناس يعجبون من كآبته على غناه ومن اتضاعه على ما هو عليـه من الجاه الى أن تنوقلت اشاعة مفادها ان هـذا الرجل سري وانه من السحرة فلو دخل داخل إلى غرفته الخاصة لوجد فيها كثيرا من أدوات السحر وجماجم الموتى

فاجتمع بعض عقائل المدينة وزرنه ثم سألنه أن يأذن لهن برؤية غرفتـه فدخل بهن اليها فلم يجـدن فيها غـير سرير بسيط وأثاث لا يستخدمه غـير أواسـط الناس ولم يستوقف أنظارهن غـير

شمعدانين من الفضة مصنوعين على طرز قديم

***

وفى أوائل سنة ١٨٢١ أذاعت الجرائد وفاة الاسقف ميريل عن اثنين وثمانين عاماً ، وهو الاسقف الذى بسطنا لمعة من تاريخ حياته فى بدء هذا الكتاب فأفاضت الجرائد فى تأبينه وأجمعت على امتداحه بما هو فيه

أما الاب مدلين فانه لم يلبث أن قرأ تلك الجرائد حتى لبس الملابس السوداء حداداً على الاسقف ، وقد عجب الناس لحداده على الاسقف وتوهموا أنه من أقربائه الى أن لقيته احدى السيدات في مجتمع وقالت له

لا شك أن لسيدى المحافظ علاقة نسب بالاسقف المرحوم

كلا يا سيدتي

قالت ولكنك لبست الحداد عليه

قال هو ذاك فقد كنت فى مبدئى خادماً عند اسرته

ومما كانوا يلاحظونه انه كل ما رآى قروياً قادماً من القرى الى المدينة يستوقفه ويسأله ان ينفحه بشى من المال ويطلق له السراح

***

وعلى الجملة فقد أجمع الناس في تلك المدينة على احترامه وحبه ماخلا رجلا كان اذا رأى الناس يحنون الرؤوس إجلالا له عند

مروره وقف ينظر اليه نظرات منكرة ثم يقلب شفته ويقول في نفسه

« ترى من عسى أن يكون هذا الرجل ... لا شك عندي أني عرفته ورأيته من قبل ... ولكن أين ... لابدلي أن أذكره وأقف على حقيقة أمره »

ان هذا الرجل كان يدعي جافرت وهو من رجال البوليس وقد ترقى في هذا السلك بفضل المدير العام في باريس فأرسله حديثاً الى هذه المدينة بوظيفة مفتش وكان وصوله اليها بعد تعيين لاب مدلين محافظاً عليها

كان هذا الرجل وضيع الاصل ولد في السجن من امرأة كانت تتعاطى مهنة الشعوذة وكشف أسرار المستقبل ، وماتت عنه وهي في سجنها فنشأ مع اللقطاء ثم استقل حين بلغ رشده وتقلب في مهن مختلفة إلى أن انتظم في سلك البوليس السرى وكان لهذا الرجل مبدأن يحمد عليهما لولا افراطه فيهما

أحدهما احترام السلطة وثانيهما كره العصيان فلا يرحم عاصياً غير انه كان يعتبر كل ذنب ولو كان من الجنح البسيطة التي قد يتجاوز عنها القانون عيصانا — وكان يثق ثقة لا حد لها بكل من يشغل منصباً من مناصب الحكومة ولوكان من أشد البغاة الظالمين .وفوق ذلك كان من كبار الجواسيس لا تكاد تخفاه خافيه من كل ما يبحث فيه ولا يؤنبه ضميره على أمر في خدمة حكومته فلو هرب أبوه من السجن لقبض عليه وحضر ساعة اعدامه بملء الارتياح

وعلى الجملة فخير ما يقال فى وصف هذا الرجل هو ان الفلاحين يعتقدون ان كل ذئبة تلد مع أجروتها كلباً فتقتله حذراً عى أولادها منه

فلو أعطى هذا الكلب ابن الذئبة وجه انسان لما كان إلا جافرت ، هذا هو الرجل الذى كان ينظر إلى الأب مدلين تلك النظرات المنكرة كل ما رآه

فقد انتهى الامر بالمحافظ أن تنبه لنظراته ولكنه لم يكن ليكترث له بل يعامله بمل‌ء الرفق والتؤدة كما يعامل جميع الناس

أما جافرت فقد كان يبحث سراً فى كل تفاصيل حياة المحافظ وهو لا يقر به قرار لخفاء أمره حتى انه كان يعرض به فى بعض مجالسه دون أن يتهيبه ، إلى أن صفق يوماً بيديه وهو يقول لقد اهتديت اليه

ولكنه أقام ثلاثة أيام مفكراً دون أن يهتدى إلى مراده ولم يكن يروعه مثل سكينة الأب مدلين فيختلط صوابه ثم يهدأ ويعود إلى الشك والبحث

وقد اتفق يوماً أن الأب مدلين كان يسير في شارع غير مسعف فسمع لغطاً ورأي الناس محتشدين على مسافة منه . فذهب اليهم فوجد أن رجلا شيخاً يدعى فانشلفان عثر جواد مركبته فسقط وسقط الشيخ تحت المركبة

وقد كان هذا الشيخ آخر من بقى من أعداء الاب مدلين فى

ذلك العهد لحسده منه . وذلك أنه كان يشتغل فى صناعة الخرز والكهرباء قبل قدوم الاب مدلين فأفلس فيها حتى اضطر إلى أن يمتهن سوق المركبات

فلما رأى من اثراء مزاحمه فيها تمكن منه داء الحسد حتى انه لم يعد يطيق أن يرى ذلك الغريب الذى لم يقتصر على أنه بات من فضل هذه الصناعة من كبار الاغنياء بل أصبح حاكماً على البلد على كونه من الغرباء

وكان الجواد قد كسرت ساقه فاستحال نهوضه وسقط الشيخ بين دواليب المركبة فبات كل ثقلها على صدره . وكانت المركبة ثقيلة بما فيها فجعل يصيح متألماً والناس يحاولون اخراجه فلا يستطيعون

وكان جافرت قد قدم فى ذلك الحين وأرسل من يأتيه بآلة لرفع الأثقال ، فلما وصل المحافظ ورأى ما كان سأل الحضور قائلا ألا يوجد آلة لرفع الاثقال ؟

وكان قد سكن اضطرابهم حين قدومه لاحترامهم إياه فأجابه أحد الفلاحين قائلا

لقد أرسلنا من يأتى بها

— متى يعود

— بعد ربع ساعة على الاقل

— ولكن بعد هذا الوقت يكفي لقتل المنكود ألا تسمعون صوته ؟

— ما حيلتنا به

— انه يوجد مكان تحت المركبة يتسع لرجل فاذا دخل واحد منكم تحتها وتمكن من رفعها لحظة نجا الشيخ فمن يقدم على ذلك وله خمسة دنانير

فلم يجبه أحد

قال عشرة دنانير

فأطرقوا برؤوسهم وقال واحد منهم ان ذلك يقتضي له قوة عظيمة ومن فعل عرض نفسه للقتل

قال خمسة وعشرون ديناراً

فأجابه أحد الحضور قائلا

ليست الارادة التي تنقصنا يا سيدي بل القوة إذ يجب أن يكون للمرء قوة هائلة كي يتمكن من رفع هذه المركبة الثقيلة على ظهره ، فالتفت الى محدثه فوجد أنه جافرت

أما جافرت فانه نظر الى المحافظ محدقاً وقال له

انى لا أعرف غير رجل واحد يستطيع أن يفعل ما تسألهم فعله ما مسيو مدلين

فارتعش مدلين وقال من هذا

قال هو رجل كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة في سجن طولون

فاصفر وجه مادلين واشتد صياح الشيخ فنظر مداين الي من حوله وقال ألا يوجد بينكم من يريد أن يكسب خمسة وعشرين ديناراً وينقذ هذا الشيخ المنكود من الموت

فلم يجبه أحد غير جافرت فقال له

ألم أقل يا سيدى أنه لا يستطيع أن ينوب مناب الآلة في رفع الاثقال غير ذلك الرجل

فابتسم ابتسامة حزن واسرع الى الركوع امام المركبة ثم ولج تحتها فسكت الحضور حتى لم تعد تسمع غير دقات قلوبهم وحاول المحافظ رفع المركبة مرتين فلم يتمكن

وقد صاح الجميع اشفاقاً عليه كى يخرج حتى أن الشيخ نفسه قال له اخرج ياسيدى وانج بنفسك ودعنى أموت

فلم يجبهم بشيء وبذل جهداً عنيفاً فتمكن من رفع المركبة وازاحة عجلاتها وعند ذلك ثارت الحمية فى رؤوس الحاضرين وتعاونوا كلهم عليها فخرج الشيخ من تحتها

ونهض مدلين وهو أصفر الوجه يندى بالعرق وقد تمزقت ملابسه وتلوثت بالوحول

أما الشيخ فانه ركع أمامه وجعل يقبل ركبتيه باكياً وهو لايجد كلمة يعبر بها عن امتنانه. وكان الشيخ قد رضت عظامه فرسله الى المستشفى وفى اليوم التالى ارسل اليه ألف فرنك ثمن مركبته التى تحطمت وجواده الذى قتل

يوجد في المعمل الذى أنشأه مدلين للنساء امرأة تدعى فانتين كانت هذه المرأة لاتزال فى مقتبل الشباب ونضارة الجمال وهى غريبة عن هذه المدينة

وحكايتها أنها كانت ذهبت الى باريس فى التماس الرزق فاغواها أحد الفتيان وأصابها مايصيب اكثر هؤلاء المنكودات فقد أحبها ذلك الفتى ثم ملها ثم تخلى عنها بعد أن ولدت منه طفلة فضاقت بها موارد الرزق فاودعت طفلتها عند قروية على ان تنقدها ثمانية فرنكات في الشهر وجعلت تطوف فى البلاد حتى أدت بها خاتمة المكان الى مدينة الاب مدلين ودخلت عاملة في معمله النسائى تشتغل بصناعة الخرز

وقد كان سرورها عظيما لتمكنها بعد جهدها العنيف من أن تعيش عيشاً شريفاً وعدت ذلك المعمل نعمة من السماء

وقد اشترت مرآة صغيرة كانت تنظر فيها الى وجهها الجميل ونسيت كل ما مر بها من ضروب الشقاء فلم تعد تفكر الا بشغلها وبنتها

واستأجرت غرفة حقيرة وفرشتها على أن تدفع قيمة فرشها أقساطاً مما تقتصده من أجرتها

وكانت قد بالغت في كتمان أمر بنتها لانها كانت عارفة شروط المعمل الذى لم يكن يقبل غير الطاهرات من النساء

ولكنها كانت مضطرة الى مراسلة القروية التى كانت تربي بنتها وهى لا تعرف أن تكتب فكانت تستعين بكاتب عمومي لهذ

الفرض فلم يمر بها شهران حتى تنبه اليها العاملات وأخذن يتحدثن بهذه الرسائل التى تكتبها ويتوسمون فى مجال الظنون

وكانت جميلة كما قدمناه. فدفع الحسد بعض العاملات ودفع بعضها الفضول الى مراقبتها فعرفن بعد البحث من ذلك الكاتب الذي يكتب رسائلها حقيقة أمرها وانها غير متزوجة ولها بنت تربيها سرا فى الريف

ولما وثقن من أمرها وشين بها الى مديرة المعمل فجاءتها بعد يومين وأعطتها خمسين فرنكا على سبيل الهبة وأمرتها باسم المحافظ أن لا تعود الى المعمل

وقد اتفق في هذا اليوم نفسه أن القروية التى كانت تربي بنتها كتبت اليها تطلب خمسة عشر فرنكا بدلا من ثمانية عن ابنتها بحجة أنها كبرت وزادت نفقاتها

فوقع نبأ طردها على رأسها وقوع الصاعقة إذ لم تكن تستطيع مبارحة المدينة فانها كانت مدينة بأجرة غرفتها وثمن فرشها

وقد توسلت كثيراً الى المديرة أن تستبقيها فأجابتها اذ طردها كان بأمر المحافظ وان كل توسل لا يفيد بعد اشتهار زلتها فخرجت منه خروج حواء من الجنة وذهبت الى غرفتها واليأس ملء قلبها والدموع ملء عينيها

وقد حارت في أمرها فارتأت أن تكون خادمة في أحد المنازل وعرضت نفسها على بيوت كثيرة فلم يقبلها أحد فجعلت

تخيط ملابس للجنود بأجرة زهيدة لا تكفي للقيام بنصف نفقاتها بحيث تعذر عليها من ذلك الحين أن تدفع نفقات بانتظام كما كانت تدفع من قبل

وكان يوجد امرأة عجوز في المنزل الذي كانت تقيم فيه فاشفقت عليها وجعلت تعلمها عيشة الفقراء فتعلمت كيف تستطيع أن تستغنى عن النار في الشتاء وكيف تجعل ثوبها غطاءها وغطاءها ثوبها وكيف تقتصد شمعتها فتتعشى عند النافذة مستمدة النور من جيرانها الى كثير غير ذلك فتعلمت هذا الفن وبرعت فيه وجعلت تكتفي من النوم بخمس ساعات وتشتغل كل ما بقي من ساعات ذلك اليوم

وكان عزاءها فى كل ذلك أنها سترى بنتها

ولكن أنى لها ذلك وهي لا تستطيع السفر اليها ولامال لها فترسل من يأتي بها

وكانت في بدء أمرها شديدة الشقاء لا تجسر على الخروج من غرفتها لخجلها فانها خرجت يوماً فوجدت جميع الذين يعرفونها ينظرون اليها ولم تجد بينهم من يتدانى الى تحيتها

ولكنها ما لبثت أن تعودت هذا الشقاء ولم تعد تكترث بما كان يؤلمها من نظرات أولئك الناس

ثم أقبل الشتاء وقلت ساعات العمل وشح كسبها وأرهقها مدائنوها فقد زاد دينها بسبب قلة كسبها

وفيما هي على ذلك لا تعلم كيف تجد مخرجاً من ضيقها وردت اليها رسالة من القروية تخبرها فيها ان بنتها عارية وان البرد شديدوانه لابد لها أن ترسل عشرةفرنكات على الاقل أو يقتل البرد بنتها

فكادت تجن من يأسها وأفرغت كل مجهودها يومين في سبيل الحصول على هذا المبلغ فلم يتيسر لها

الى أن مرت بدكان حلاق وشعرها مسترسل على كتفيها يكاد يصل إلى قدميها

فقال الحلاق ما أجمل هذا الشعر!

فنظرت اليه نظرة قنوط وقالت له

كم تدفع ثمنه

قال عشر فرنكات

قالت قصه فهو لك

وقد اشترت بثمنه ثوباً لبنتها وأرسلته إلى القروية وعادت الى غرفتها تتعزى عن شعرها بدفء بنتها

ولكن تلك القروية لم تكن تريد الثوب بل ثمن الثوب

وكان قلبها موغراً حقداً على الأب مدلين لاعتقادها أن كل نكبتها منه فزاد قص شعرها حقدها عليه

ثم اشتد بها الضيق وانقطعت عنها موارد الرزق فاستسلمت الى أول رجل لقيته وكان رجلا شقياً موسيقياً يطوف بآلته

فيعزف عليها مستكدياً فلقيت منـه ما يفضله كل شقاء ثم افترقا فعادت الى ما كانت عليه من اليأس

وزاد في يأسها انها أصيبت بسعال شديد لزمها ملازمة العلة فباتت منه في أسوأ حال

وفيما هي على هذه الحالة وردتها رسالة من القروية تقول فيها ان بنتها مصابة بحمى معوية متفشية في القرية وانها تحتاج الى معالجة والادوية غالية الثمن فاذا لم ترسل اليها أربعين فرنكا في خلال أسبوع ماتت بنتها لا محالة

فجعلت المنكودة تضحك من يأسها كأنها أصيبت بالجنون وتقول لجارتها العجوز

انها تطلب الي أربعين فرنكا فأين تريد أن أجد هذا المبلغ العظيم وأنا لا أجد ثمن رغيف

ثم خرجت من غرفتها وهي تضحك ضحكا يفضـله كل بكاء وسارت هائمة على وجهها لا تعلم ما تصنع

الى أن انتهت إلى مسافة رأت فيها مركبة ورجلا واقفاً فيها والناس مجتمعون من حوله

فسألت عنه فقيل لها أنه طبيب أسنان يقلع الضرس دون ألم ويعالج آلامه فتزول بلحظة

فعادت إلى ضحكها العصبي ورأى الطبيب مقدمة أسنانها البيضاء فناداها قائلا"

أتبيعيني أيتها الفتاة هذين السنين اللذين في مقدمة ثغرك
فاني أنقدك أربعين فرنكاً ثمنهما

فصاحت المنكودة صيحة رعب

وقالت عجوز من حولها .. أربعون فرنكاً أي ديناران

أما الطبيب فانه عاد إلى محادثتها مستعجلا وهي تحاول
الفرار منه

فقال :

تمني أيتها الحسناء .. أربعون فرنكا .. إني مقيم فى الفندق
المقضي فاذا أردت بيعهما تجديني هناك فى المساء

فهربت فانتين والذعر ملء قلبها إلى غرفتها

وهناك لقيت جارتها العجوز وأخبرتها بما كان بينها وبين
الطبيب فأطرقت مفكرة دون أن تجيب

وعادت فانتين إلى قراءة الرسالة التي وردتها وسألت
العجوز قائلة

ماهي الحمي المعوية

قالت إنها مرض من الامراض المشهورة

— أيحتاجون في هذه العلة إلى كثير من الادوية

— دون شك

— أتصيب الاطفال

— بل إنها تكاد تكون خاصة بهم

— أيموتون بها

— إذا لم يحسنوا معالجتهم

فقامت من فورها وذهبت توا إلى فندق الطبيب ثم عادت وقد قلع سنيها وأعطاها الدينارين فنظرت إلى المرآة وجعلت تبكي بكاء الاطفال

***

وفي اليوم التالي أرسلت الدينارين إلى القروية وعادت إلى غرفتها

وفيما هي عائدة لقيها أحد الثقلاء وقد رأى ما كان من أسنانها فجعل يتهكم عليها ويعيرها بقبح فمها وذهاب شعرها انتقاماً منها لانها كانت تصده حين كان يتعرض لها

ولم يقتصر على هذا الحد بل جعل يرميها بالثلج ثم غافلها وهي هاربة منه فأخذ قبضة من الثلج ووضعها بين كتفيها فضاق نطاق صبرها وصفعته صفعة شديدة فامسك بها وأمسكت به واجتمع الناس من حولهما يحاولون تفريقهما فلا يستطيعون

وعند ذلك اتفق مرور جافرت فلم ير إلا أن تلك المنكودة ماسكة بثياب الرجل توسعه شتما ففرق الناس من حولهما ووضع يده على كتفها فقال لها

اتبعيني

فالتفتت المنكودة ورأت مفتش البوليس فجعلت ترتجف من الرعب

أما ذلك الرجل فقد اغتنم هذه الفرصة وتوارى عن الانظار

وبعد هنيهة كان جافرت وراء منضدته في إدارة البوليس وفانتين واقفة أمامه ترتجف

وكان هذا المفتش شديد القسوة على أمثال هذه الفتاة وقد رآها في الشارع العام ممسكة بثياب رجل وسمعها تشتمه أقبح شتم فاكتفى بما رآه ولم يتدن الى سؤالها بل كان يكتب الحكم عليها صامت وهي قد انزوت الى زاوية الغرفة تنتظر صدور ذلك الحكم

ثم نظر اليها نظرة منكرة بعد أن فرغ من الكتابة وقال

لقد حكمنا عليك بالسجن ستة أشهر

فجنت من يأسها وصاحت قائلة

ويلاه ستة أشهر في السجن . ومن يطعم ابنتي . رحماك ياسيدي أتعلم ماذا صنعت

ثم ركعت امامه وجعلت تتوسل اليه وتقول

ارحمني يا سيدي يرحمك الله . . اني لم أكن البادئة بالخطأ بل اقسم بالله اني لم أكن لمخطئة فقد تصدى لي هذا الرجل بالاقوال الشائنة ووضع الثلج في ظهري وأنا مريضة أيحق له أن يسيء الي هذه الاساءة

ارحمني يا سيدي واشفق عني فانك لم تقض علي وحدى بهذا الحكم بل قضيت علي وعلى ابنتي بالموت

قال لقد سمعناك أيتها المرأة وحكمنا عليك بما تستحقين فاذهبي الى سجنك . فان هذا الحكم لا ينقضه غير الله

فعادت الى التوسل والاستعطاف فادار ظهره وقبض الجنود عليها يحاولون جرها الى السجن

وكان قد دخل رجل الى القاعة حين أدار المفتش ظهره فأقفل الباب واستند اليه وسمع كل توسلات هذه المرأة

فلما قبض الجنود عليها تقدم في القاعة وقال

مهلا أيها الجنود

فالتفت المفتش حين سمع الصوت ورأى المحافظ فرفع قبعته ووقف بملء الاحترام وقال

أسألك المعذرة يا سيدى المحافظ فاني لم أرك

فلما سمعت فانتين اسم المحافظ اهتزت اهتزازاً عنيفاً فدفعت الجنود عنها ومشت الى الاب مدلين قبل أن يتمكنوا من صدها عنه فقالت له

أأنت هو الذي يدعونك سيدي المحافظ

ثم ضحكت ضحكا عصبياً وبصقت في وجهه

أما الاب مدلين فانه مسح البصاق عن وجهه ونظر الى المفتش فقال له

أيها المفتش جافرت اطلق سراح هذه المرأة

فشعر جافرت كأن الارض تميد به فانه رأى بأم عينه فتاة من بنات الهوى تبصق في وجه حاكم البلد وهو ما تستحق عليه في عرفه الحكم بالموت

ثم رأى هذا الحاكم نفسه يمسح البصاق عن وجهه بملء السكينة ويأمر باطلاق سراح هذه المرأة

وأي أمر أشد من هذا فقد بلغ من ذهوله أن لسانه انحبس عن الكلام فلم يستطع أن يفوه بلفظة

أما فنتين فقد كان تأثيرها أشد فانها اتكأت على المستوقد وجعلت تنظر الى ما حواليها وتحدث نفسها فتقول

أيطلقون سراحي . . ألا أذهب الى السجن . . ألا أقيم فيه ستة أشهر . ومن الذي قال هذا القول . أنه محال . ولا شك اني أخطأت السمع . . ومن عساه يطلق سراحي ألا ذلك الوحش محافظ أم هو انت ياسيدي المفتش

اني معرضة عليك كل أمري فتدعني أنصرف . أن هذا المحافظ الوحشي الاخلاق علة كل شقائي فهو الذي طردني من المعمل بوشاية بعض العاملات وانا امهرهن في العمل وأثبتهن عليه

ولما طردني دون ذنب اضطررت الى الارتزاق لاقوم باودى واود بنتي فنهجت سبيل الضلال مرغمة وما أرغمني غير ضيق الارتزاق الذي سببه هذا المحافظ وكثرة علي من الدين

ولا أنكر اني شتمت ذلك الرجل الذي تعرض لي في الطريق ولكنني لم أشتمه إلا بعد ان وضع الثلج في ظهري وبعد ان مزقثوبي وليس لي سواه

وأنت ترى يا سيدي انى ما أسأت اليه مقدار ذرة مما أساء به الي ومع ذلك فقد أطلقت سراحه وحكمت على بالسجن

والآن أنت يا سيدي الذي امرت باطلاق سراحى أليس كذلك:

اني اشكرك ياسيدي بملء جوارحي وسأعيش اشرف عيش ولا اسيء بعد الآن الى الانسان

وقد أصغى الاب مدلين الى كل معانيها فبحث فى كيسه فوجده فارغاً فرده الى حيبه وسألها قائلا

كم يبلغ دينك يا ابنتي

فنظرت اليه مغضبة وقالت له

ألعلي أكلمك فتكلمني ... اني بصقت في وجهك لانك تستحق هذا التحقير وانك ما أتيت الى هنا إلا لتخيفني .. ولكني لا أخافك بل أخاف المسيو جافرت وقد صفح عني

ثم مشت إلى الباب تريد الانصراف

وكان جافرت قد ثاب اليه رشده فانتهر الجنود قائلا

ويحكم كيف تدعونها تنصرف ومن أمركم باخلاء سبيلها

فأجاب المحافظ قائلا

أنا

أما فانتين فانها حين سمعت صوت المفتش وجف قلبها من ذعر ثم سمعت قول المحافظ فلم تعلم أيهما المحسن اليها وأيهما المسيء وجعلت تقلب نظرها من الواحد الى الآخر وهما يتناقشان

وقد أجاب المفتش المحافظ فقال له

ان هذا لا يمكن أن يكون يا سيدي

— لماذا

— لان هذه الشقية قد أهانت رجلا في الطريق

— اصغ الى فانك رجل نبيل المقاصد ولا بأس من ان أناقشك في هذا الموضوع

اني مررت بذلك الشارع الذي قبضت فيه على هذه المنكودة وكان الناس لا يزالون مجتمعين هناك وعرفت الحقيقة من أفواههم فتبين لي أن الرجل كان مخطئاً وأنه أولى بالسجن من هذه المرأة

— ولكن هذه الشقية قد أهانت سيدى المحافظ

— هذا منوط بي وحدي فأنا الذي أهنت دون سواى

— بل ان العدالة قد أهينت باهانتك

— ان أول شروط العدالة راحة الضمير وقد سمعت هذه المرأة وأنا عالم بحقيقة ما أصنع

— وأنا لا أعلم يا سيدي ماذا اصنع

— اذن اكتف بالامتثال

— اني أمتثل لواجباتي وهي تقضي على أن أسجن هذه المرأة ستة أشهر

— بل انها لا تسجن يوماً واحداً

— يعز على يا سيدي أن أقاومك فهذه أول مرة في حياتي أتفق لي مثل هذا الشأن

واني ألتمس من سيدي أن يأذن لي باجراء وظيفتي وما زلت قد تنازلت عن حقك بشأن هـذه المرأة فاني اقتصر على النظر في شأنها مع ذلك الرجل

ولقد رأيت ما كان منها اذ كنت هناك وسمعتها تهين رجالا من أصحاب الاملاك الذين يحق لهم الانتخاب ولما كان شأنهم خاصاً بالبوليس فلا بد لي من سجنها

— بل انك واهم أيها المفتش فان البند التاسع والحادي عشر والخامس عشر والسبعين من قانون الجزاء يقضي ان اكون انا الذي يتولى الحكم في هذه الشؤون ولذلك آمران باطلاق سراح هذه المرأة

— ولكن اسمح لي يا سيدي

— لا اسمح لك بشيء

— ومع ذلك

— اخرج من هنا فقد تجاوزت الحد

فتلقى جافرت هذه الضربة بالصبر ثم انحنى أمام المحافظ وانصرف

وقد رأت فانتين ما كان من هذين الرجلين اللذين يتنازعان حريتها وهي حياتها وحياة بنتها وان احدهما كان شيطاناً رجيما والآخر من ملائكة الرحمة والخير ثم رأت كيف تغلب ذلك الملاك الذي طالما أساءت به الظن والتي اهانته اهانة لا تغتفر فجازاها بالغفران وأنقذها من ذلك العقاب الصارم بدلا من أن يزيده

وقد كبر ذلك عليها فلم تجد ما تقوله وأدرك المحافظ ما كان يجول في نفسها فدنا منها وقال لها

لقد سمعت كل حديثك ولم أكن أعلم شيئاً مما قلته وهو حق دون ريب بل اني كنت أجهل انك طردت من المعمل فلماذا ما تيت الي والآن أعلمتني فسأفي دونك وآتيك بابنتك أو تذهبين اليها وتعيشين هنا أو في باريس كما تشائين فاني ضامن لك الرزق أني كنت واذا أحببت أن لا تشتغلي أعطيتك كل ما تحتاجين إليه فتعودين شريفة وتعيشين سعيدة

وقد كان ذلك فوق ما تتصوره تلك المنكودة فانها ستجتمع بينتها وتعتزل هذا العيش الذميم وتكون حرة غنية سعيدة شريفة وابنتها معها

وما هي تلتمس غير هذا من الاقدار وما عساه يوجد أكثر من ذلك في جنات النعيم

وقد شعرت أنها سقطت على ركبتها إمام المحافظ وإنها أخذت يده فوضعتها على فمها ثم أغمي عليها فلم تعد تعي على شيء

ولقد أمر المحافظ بنقلها إلى المستشفي وعهد بالعناية بها إلى راهبتين فانها أصيبت بحمى شديدة جعلتها تهذى كل الليل فلم ينقطع هذيانها إلا فى أواخر الليل فنامت نوما هادئاً

ولما استيقظت فى ظهر اليوم التالى سمعت صوت أنفاس بجانب سريرها

فأزاحت الناموسيه فرأت المحافظ ينظر إلى الجدار فوق رأسها نظرات ملؤها الحنو فنظرت الى حيث كان ينظر فرأت هناك رسم المسيح وخيل لها أن النور كان يتدفق من وجه المحافظ وهو مستغرق فى الصلاة لا يشغله عنها شاغل

فلبثت تتمعن في وجهه دون أن تجسر على مقاطعته ثم قالت له ماذا تعمل هنا ياسيدى

وكان المحافظ واقفاً هناك منذ ساعه ينتظر فانتين الى أن تفيق من رقادها

فأخذ يدها وجس نبضها وسألها قائلا

كيف أنت

قالت أظن أنى بخير فقد نمت هذه الليله

قال انك شقيت كثيراً ياابنتى فلا تجزعي فان خروجك من الجحيم الذى كنت فيه كان بدء دخولك فى طريق النعيم ثم تنهد تنهداً عميقاً فابتسمت له عن ثغر ينقص منه سنان أماما فرت فانه كتب فى تلك الليلة كتاباً أرسله بنفسه الى ادارة البريد

وكان عنوان هذا الكتاب إلى شابوليه سكرتير مدير البوليس
العام في باريس يذكر له فيه ما جرى بينه وبين المحافظ فان لهذا
السكرتير فضلا على جافرت في ترقيه في سلك البوليس

وأما المحافظ فانه كتب إلى القروية كتابا يوصيها فيه بابنة
فانتين وارسل لها في طيه ثلاثمائة فرنك ثم طلب إليها ان تسرع باعادة
البنت الي أمها فانها مريضة تريد أن تراها

فلما وصل هذا الكتاب إلى القرويه أطلعت زوجها عليه
فسر بما رآه وقال لها

أرى أن هذه المرأة قد تغير حالها فبعد ان كانت تعجز عن
ارسال عشرة فرنكات أصبحت ترسل لنا ثلاثمائة

وعندى أنه يجب اغتنام هذه الفرصه

وقام من فوره فاجاب على هذا الكتاب وكتب فيه بيانين
أحدهما حساب الصيدليات والآخر حساب الاطباء بحيث بلغ
المجموع خمسمائة فرنك

وكتب تحت البيانين وصلنى ثلاثمائة فرنك من أصل الحساب
ثم أرسله باسم المحافظ

والحقيقة أن الطفلة لم تمرض ولكن القرويه وزوجها أدعيا
أنها مريضة واتخذا ذلك المرض ذريعة لابتزاز الأموال من تلك
المنكودة

أما المحافظ فانه حين وصل اليه كتاب القرويه أرسل اليها

ثلاثمائة فرنك أيضاً بزيادة مائة فرنك عما طلبت وسألها الاسراع بارسال الطفلة

ولكن القروية لم ترسلها لطمعها بالمزيد

وقد كان مدلين يعود فانتين مرتين كل يوم وفي كل مرة تسأله قائلة متى أرى ابنتي

فيجيبها قائلا

غدا ان شاء الله

فيشرق وجهها الناحل باشعة الرجاء وتقول اذن سأكون غداً من أسعد خلق الله

على أنها فى كل مدة أقامتها فى المستشفى لم تتقدم خطوة في مدارج العافية بل أن حالتها كانت تزيد خطورة في كل أسبوع

وذلك أن شقاءها في الايام الاخيرة مما لقيته من البرد والجوع والاضطراب الروحي هاج فيها كوامن علة لا سبيل فيها الى الشفاء وهي علة الصدر فلما فحصها الطبيب آخر مرة هز رأسه وسأله مدلين قائلا

ماذا رأيت

قال أليس لها طفلة تريد أن تراها

قال نعم

قال اذن عجلوا باحضارها

فارتعش مدلين وسألته فانتين عما قاله الطبيب

قال أمرنا أن نسرع باحضار طفلتك فان وجودها معك يعجل في شفائك

فتأوهت وقالت

لقد أصاب الطبيب ولكن ما بال هذه القروية لا ترسل بنتي إليّ وماذا تريد من حفظها!

قال لا شيء وسأرسل من يأتي بها واذا اقتضى الامر ذهبت بنفسي

أما القروية فانها كانت في كل يوم تنتحل عذراً جديداً عن ارسالها فكان آخر ما اعتذرت به أن الطفلة لا تزال متوعكة وانه لا يزال هناك بعض ديون متفرقة الى غير ذلك فكتب المحافظ اليها باسم فانتين يقول

« سلموا بنتي الى حامل رسالتي وهو يعطيكم كل ما علينا من الديون »

ولكن حالت الحوائل دون تنفيذ هذا الغرض كما سنبسطه للقراء

***

في صباح اليوم التالي بينما كان المحافظ في مكتبه يشتغل منهمكاً في أشغال مستعجلة خاصة بالمحافظة دخل اليه خادم واخبره أن الموسيو جافرت مفتش البوليس قدم اليه يريد أن يراه

فاستاء المحافظ من هذه الزيارة فانه لم يره بل كان يجتنب لقاءه بعد تلك الحادثة التي جرت بينهما

ولكنه لم يسعه إلا استقباله فأمر الخادم بادخاله

ودخل جافرت فحياه بملء الاحترام غير أن المحافظ لبث عاكفاً على عمله بدون أن ينظر اليه

وبعد هنيهة نظر اليه وقال له

ماذا حدث يا جافرت

فاجابه بلهجة تدل على الكآبة فقال

حدث يا سيدى انه جرت جريمة لا بد من عقاب مرتكبها

— ما هى هذه الجريمة

— هي ان عاملا من عمال الحكومة تجاسر على رئيسه بشكل خطير فتقضت على واجباتي ان اطلعك على ما جرى

— من هو هذا العامل

— هو انا يا سيدي

— انت

— نعم انا

— ومن هو الرئيس الذي تعنيه

— هو انت يا سيدى المحافظ ولذلك جئتك ملتمساً ان تطلب الى الحكومة ان تعذلني

فذهل المحافظ مما سمعه ومضى جافرت في حديثه فقال

انك قد تقول في نفسك يا سيدى ما باله لا يستقيل من منصبه ولكني أقول ان الاستقالة لا تكفي فليس فيها عقاب بل

انها قد تكون شرفاً لصاحبها احياناً

أما أنا فقد أذنبت فلا بد لي من أن أعاقب على ذنبي وذنبي يستحق الطرد

انك ياسيدي المحافظ كنت قاسياً علي في ذلك اليوم من غير حق فاستعمل اليوم هذه القسوة بحق

فأجابه المحافظ قائلا

لماذا . . وما ذا تعني بهـذه الاقوال فاني لم أفهمها وما هـذا الذنب الذي أذنبته إلي . . . حتى انك تتهم نفسك وتسأل الانتقال من منصبك

— بل أسأل الطرد

— الطرد أو العزل أو الانتقال . . إني لا أفهم شيئاً مما تقول

فتنهد جافرت تنهداً طويلا وقال

سوف تعلم ياسيدي المحافظ فاني منذ ستة أسابيع أي منذ حادثة تلك الفتاة وشيت بك

— وشيت بي

— إلى من

— إلى ادارة البوليس في باريس

فلم يسعه غير الضحك وهو ليس من الذين يضحكون وقال كيف وشيت بي . . أقلت اني محافظ تداخلت في شؤون البوليس

— بل قلت انك من السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة

فاصفر وجهه ومضى جافرت فى حديثه فقال

لقد توهمت ذلك فيك من عهد بعيد اذ كنت أجد فيك شبهاً عقليا بذلك المجرم وهـذا الشبه بوجهك وعمرك وقامتك وقوة عضلاتك وكل شيء فيك وعلى الجملة فقد كنت أتوهم انك جان فالجان

— من هذا الاسم الذي ذكرته

— جان فالجان فانه رجلا كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة في سجن طولون وقد عرفته منذ عشرين عاماً حين كنت حارساً في ذلك السجن

أما هذا الرجل فانه بعد خروجه من السجن سرق منزل أحد الاساقفة واختلس قطعة نقود من غلام قروى في قارعة الطريق وهو قد احتجب منذ ثمانية أعوام فلا يعلم أحد أين هو على كثرة البحث عنه

أما أنا فقد كنت أتوهم أنك أنت هو فلما هاج غضبى بعد حادثة تلك المرأة وشيت بك إلى إدارة البوليس

فظهرت على المحافظ بعد ذلك الاصفرار وعلائم عدم الاكتراث وقال له

بماذا أجابوك

— أجابونى انى من المجانين

— وأنت ماذا ترى

— أرى انهم مصيبون

— يسرنى أنك تعترف بذلك

— لابدلي من الاعتراف بعد اذ وجدوا جان فالجان الحقيقي

وكان بيد المحافظ ورقة فسقطت من يده وقال له

كيف وجدوه

قال اسمع ياسيدي المحافظ ما جرى

ذلك أنه يوجد في قرية كلوشيه رجل يدعى الاب شامباتيو لم يكن أحد ينتبه اليه لمسكنته

وقد اتهم حديثاً بسرقة بستان بعد ان تسلق سوره وقصف أغصانه فقبضوا عليه وعرق التفاح بيده وألقوه في السجن وهي حادثة بسيطة لا تستحق الذكر الي الآن

ولكن اسمع ما جرى وكيف دبرت العناية كشف أمر هذا الرجل فان سجن تلك القرية كان خرباً فارتأى قاضي التحقيق ارساله الى سجن اراس

وقد اتفق أنه وجد في ذلك السجن رجلا من الاشقياء يدعى بريفيه كان قد حكم عليه من قبل بالاشغال الشاقة

فلم يكن يرى شامباتيو حتى صاح قائلا

اني أعرف هذا الرجل فهو من سجناء طولون

ثم دنا منه فتفرس في وجهه وقال له

انظر الي ألست جان فالجان نعم أنك هو بعينه

فتكلف شامباتيو الانذهال وقال

من هو جان فالجان هذا

قال لا تحاول الانكار ياجان فقد كنا معاً منذ عشرين عاماً في سجن طولون

فأصر الرجل على انكاره

ولكنهم دققوا في البحث فتبين لهم أن هذا الرجل كان يشتغل في الحدائق منذ ثلاثين عاماً في مدن مختلفة .

وقد فقدوا أثره في مدينة فافرول ثم وجدوه في باريس ومعه ابنته فكانت تشتغل بغسل الثياب

غير ان ذلك لم يثبت كل الثبوت والذي ثبت أنه كان بستانياً في فافرول قبل ذهابه الى طولون

وكان جان فالجان هذا يدعى جان باسمه الاول وكانت عائلة أمه تدعى ماتيو فلما خرج من سجن طولون دعى نفسه باسم جان ماتيو للتنكر ثم حرف ذلك الاسم مبالغة في التنكر فصار شان ماتيو

ثم سألوا عن عائلته فلم يجدوا لها أثراً فسألوا عنه السجناء الباقين في سجن طولون فوجدوا فيه اثنين يعرفانه فجاؤا بهما من ذلك السجن فشهدا ان شان ماتيو انما هو جان فالجان بعينه

أما انا فقد أرسلت تقريري الى ادارة البوليس ووشيت بك قبل أن اقف على شيء من هذه التفاصيل

فاجابوني اني واهم وان جان فالجان سجن في اراس

وقد ذهلت ذهولا عظيما لاعتقادي انك انت هو جان فالجان

فكتبت فى الحال الى قاضى التحقيق فى اراس فدعانى اليه وهناك اراني شانماتيو

فقال له المحافظ وهناك ماذا رأيت

قال رأيت ياسيدى المحافظ انى كنت واهما لشدة الشبه بينكما فان جان فالجان الحقيقى هناك

فأجابه المحافظ بصوت خافت

أأنت واثق مما تقول

قال كل الثقة فذلك لا ريب فيه والآن فانى التمس منك يا سيدى معذرتي لهذا الخطأ

— وماذا يكون مصير هذا الرجل

—ان أمره خطير يا سيدى وعلى بساطته فى الظاهر فان سرقة تفاح من بستان واختطاف قطعة نقود من غلام لا يعاقب عليهما القانون إلا بالسجن البسيط بل قد يغتفرها أحياناً

ولكن القانون شديد الصرامة على أصحاب السوابق فلو ارتكبها رجل لم يرتكب مثلها من قبل لعدوها له جنحة وأما إذا ارتكبها رجل حكم عليه من قبل بالاشغال الشاقة عدوها له جناية فلا يسجنونه بضعة أيام بل يحكمون عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة

أما المحافظ فقد امتعض لهذه الاخبار فأخذ القلم بيده وقال لجافرت

كنى ياجافرت فلا فائدة لنا من هذه المباحث فانها تضيع وقتنا عبثاً فان لدينا أشغالا مستعجلة

والآن فاذهب إلى تلك المرأة التى تبيع الخضر فى شارع سولف وقل لها تشكو السائق لبير شنلون فان هذا الهمجى كاد يسحق هذه المرأة وطفلها ولا بد من معاقبته

ثم تذهب الى الموسيو شرميلى فى شارع شابيتى فهو يشكو من وجود ميزاب عند الجيران يصب مياه المطر في منزله ويضر بأساسه ثم تذهب الى الارملة دوريس وتحقق هناك الشكاوى التي عرضت علي

إني شغلتك الآن بمهمات كثيرة وذلك لانك ستغيب عنى ألم تقل لي انك ستذهب الى أراس بعد ثمانية أو عشرة أيام في شأن هذا الرجل الذي رويت لي حكايته

— نعم ولكنى سأذهب قبل ذلك بكثير

— متى

— ان المحاكمة غداً وسأذهب هذه الليلة في مركبة البريد

فتبين الاضطراب في وجه مدلين وقال

كم المسافة بين هنا وبين أراس

— يوم واحد وان الحكم سيصدر غالباً في المساء ولكني لا أنتظر صدور الحكم بل أبسط شهادتي وأعود

— حسناً

وعاد المحافظ الى عمله اشارة إلى أن المقابلة قد انتهت ولكن جافرت لم ينصرف

فقال له المحافظ

ماذا يوجد أيضاً

— لقد بقي يا سيدي المحافظ أمر أذكرك فيه

— ما هو

— هو أمر وجوب عزلي

فوقف المحافظ وقال

انك رجل شريف يا جافرت وقد بت أحترمك بعد ما تبين لي من نبل غايتك

ولكنك تبالغ كثيراً في إظهار ذنبك . وبعد فان هذه الاهانة منوطة بي وأنت أهل للصعود لا للهبوط وللارتقاء لا إلى العزل ألا يحق لي أن أصفح عنك كما صفحت عن تلك المرأة التي بصقت في وجهي فابق في منصبك فاني أريد أن تبقى

فأجابه بلهجة ملؤها السكينة قائلا

سيدي اني لا أستطيع البقاء بعد ذنبي

— اني أعيد عليك ما قلته وهو أن ذنبك منوط بي

فلم يقنع بذلك ومضى في حديثه فقال

كلا ياسيدي اني لست مبالغاً في ذنبي وخلاصة أمري أني أسأت اليك بالظنون ظلماً ولا أعد ذلك ذنباً فان مهنتي تقضي

على أن أشك بكل ما أراه داعياً الى الشك دون أن يكون عي لوم ولا حرج

ولكن ذنبي هو اني وشيت بك إلك من المجرمين الغرض قبيح وهو الانتقام وفعلت ذلك فى ساعة غضب دون أن يكون لي برهان على التهمة

وان إصابة رجل محترم وحاكم بلد بهذه الاهانة تعد من الامور الخطيرة

وذلك انى لم اقتصر على اهانتك بل أهنت الحكومة نفسها باهانتك فانك تمثلها

ولو اتفق لى ذلك مع مأمور دونى فى المنصب لما صبرت على جرأته ولطردته فى الحال

والآن فاصغ إلى ياسيدى فلقد كنت شديد القسوة مع الناس فيما يتعلق بأمر منصبي

وكنت اعتقد انى عادل فى قسوتي

فاذا كنت لا أعامل نفسي بما كنت أعامل بين الناس ولا أقسو على نفسي كما كنت أقسو عليهم أصبحت أعمالي السابقة بجملتها ظلماً

ولذلك لا أرجو ياسيدى أن تعاملني بما أنت مفطور عليه من مكارم الاخلاق فان مرؤتك قد اثرت بى أسوأ تأثير حين بذلتها مع سواى فكيف يكون تأثيرها بى وأنت تفرشه عى

وبعد فان المرؤة التى تنتصر لبنت الهوى على الرجل الشريف ومفتش البوليس على الحاكم وللأدنى على الاعلى لا تكون من مرؤة الصالحة في شيء

بلى أنها تكون أعظم مفوض لاركان الهيأة

وعلى الجملة فانى لو كنت فى مكانك وكنت في مكاني لما غفرت لك ولعزلتك فى أول لحظة

نعم انى ساذل وأهان وأشقى في سبيل الارتزاق ولكني لاأعدم عملا فعاملني ياسيدى بما تقتضيه العدالة والحق وأعزل المفتش جافرت فانه يستحق العزل

وكان جافرت يقول هذا الاقرار بلهجة تدل على صدق العزيمة و وثوق التام من صحة ما يعتقد

فلما فرغ من حديثه قال له المحافظ

ذهب الآن وسوف نرى

ثم مد اليه يده مصافحا

فتراجع جافرت وقال

العفو ياسيدي المحافظ فان من كان مثلك حاكم بلد لايمد يده الى جاسوس مثلي

ثم انحنى امامه بملء الاحترام وانصرف

وعند ما وصل الى الباب التفت الى المحافظ وقال له

اني سأبقى في منصبي الى ان يتيسر لك استبدالي بسواي

وقد خرج فلبث المحافظ مطرقا مفكراً يصغى الى صوت خطواته تبتعد على بلاط الرواق

***

بعد ظهر ذلك اليوم ذهب المحافظ الي المستشفى لعيادة فانتين وكان يعودها كل يوم وهى كانت تسأل الراهبتين اللتين كانتا تعالجانها عنه فى كل يوم وتقول لهما

اني لا أشعر أن الحياة تعود الي الاحين أرى المحافظ عندى

وكانت الحمى شديدة عليها فى ذلك اليوم

فلما جاءها المحافظ سألته قائلة

متى تأتى ابنتي

فابتسم لها وقال

قريبا ان شاء الله

وأقام معها يسليها ويطيب خاطرها حسب العادة ولكنه أقام عندها ساعة زمن زيادة نصف ساعة عن المألوف

ثم عاد بعد ذلك الى منزله وقد رآه الخادم ينظر الى خريطة تمثل فرنسا كانت معلقة في جدار غرفته ويكتب مذكرات عنها على ورقة

***

وبعد ذلك ذهب توا الى رجل في المدينة يؤجر المركبات والجياد في المدينة وفي الخارج

وقد وجده هناك فحياه وسأله قائلا

هل أجد عندك يامسيو مسكو فاير جواداً نشيطاً

قال ان كل جيادي نشيطة فما تعني بذلك

— أعني أني أريد جواداً يستطيع أن يقطع عشرين مرحلة في يوم واحد

— عشرين مرحلة

— نعم

— وهو يجر مركبة

— هو ذاك

— وكم يستريح بعد هذه الرحلة

— يستريح ليلة ويعود في اليوم التالى

— ليقطع المسافة نفسها

— نعم

— ولكن لاتنس ياسيدى أنك قلت عشرين مرحلة

— فنظر المحافظ في الارقام التى نقلها عن الخريطة وقال بل تسع عشرة مرحلة ونصف

— عندى ياسيدى جوز أبيض لابد أن تكون رأيته مرة واستلفت نظرك لانه يستلفت بقوته الانظار وهو على قوته سهل الطباع لين العريكة

— يستطيع اجتياز هذه المسافة في يوم

— بل قد يجتازها بثماني ساعات ولكن بشروط

— ماهي

— هي أولا أنك تريحه ساعة في منتصف الطريق ليأكل ويجب مراقبته عند أكله كي لا يسرق خادم الفندق علفه كما يتفق ذلك كثيراً في الفنادق

— سنراقبه

— وثانيهما . . . هل المركبة لسيدي المحافظ

— نعم

— أتعرف أن تسوقها ياسيدي

— نعم

— اذن وثانيهما أنك تسافر فيها وحدك دون سواك ولا تنقل فيها أمتعة كي لا يزيد النقل على الجواد

— سأفعل

— ولكن اذا كنت مسافراً وحدك ياسيدي فمن يترقب علف الجواد

— سأراقبه أنا فكم تريد أجرته

أني اكتفي ياسيدي بثلاثين فرنكا في اليوم تحسب من يوم خروجه من أصطبله الى يوم عودته اليه أي ان أيام الاستراحة تدخل في الحساب ولا يخصم منها سانتيم

فأخذ المحافظ ستين فرنكا من جيبه فوضعها على المنضدة

وقال هذه أجرة يومين مقدما

— ورابع الشروط ياسيدى المحافظ ان المركبة الثقيلة تتعب الجواد فلا بد لك من الموافقة على السفر فى مركبة خفيفة

— أوافق على ذلك

— انها خفيفة ولكنها مكشوفة

— لا بأس

— ولكن فات سيدى المحافظ أننا فى فصل الشتاء وان البرد شديد وان الامطار قد تنهمر فى الطريق

— لاخوف على من البرد والامطار فاعلم الآن انى أريد أن تكون المركبة والجواد الذى وصفته عنـد باب منزلى فى الساعة الرابعة ونصف من الصباح

— سيكون ماأردت ياسيدى

ثم حك أذنه وقال

لقد فاتنى ياسيدى ان أسألك الى أين تريد الذهاب

والحقيقة ان لم يكن يفتكر الا بذلك منذ بدء المحادثة ولكنه لم يجسر على سؤاله هذا السؤال

فلم يجبه المحافظ على سؤاله بل سأله قائلا

هل يتعب جوادك النزول

— لابد لك أن ترفق به ياسيدي قليلا فهل يوجد نزول كثير

— لاتنس أن تكون المركبة عند باب منزلي في الساعة الرابعة ونصف

ثم انصرف ولبث صاحب المركبة مطرقا مفكرا وقد ساءه أنه لم يعلم المكان الذي يذهب اليه المحافظ

ولكنه مالبث ان رأى الباب قد فتح وان المحافظ عاد اليه فقال له

كم يبلغ ثمن الجواد والمركبة الذين تؤجرني إياهما

— العل سيدى يريد شراءهما

— كلا ولكني أريد أن أضمنهما لك فمن يعلم مايكون ومتى أرجعتهما اليك ترجع الى المبلغ الذين أعطيك اياه فكم ثمنهما

— خمسمائة فرنك

— هذه هي

وقد أخرج من جيبه ورقة بهذه القيمة فألقاها على المنضدة وانصرف هذه المرة دون أن يعود

وبقى صاحب المركبة متأثراً لعدم تمكنه من معرفة المكان الذي يسافر اليه المحافظ

وقد نادى امرأته فقص عليهاما كان بينهما ثم ارتأى أنه قد يكون مسافرا إلى باريس فخالفته في هذا الرأي

— كان المحافظ قد نسي على المنضدة تلك الورقة التي كتب

عليها الارقام عن الخريطة فنظر فيها وصاح قائلا

لقد عرفت

فسألته امرأته قائلة كيف عرفت

قال من هذه الارقام فانها تشير الى المراحل التى يقطعها . .
انظري فقد كتب فيها ٥ ـ ٦ـ ½ ٨

قالت ماذا تستنتج من ذلك

قال استنتج أنه يوجد خمس مراحل من هنا الى هدن وست مراحل من هدن الى سانت بول وثماني مراحل و نصف من سانت بول الى أراس فهو ذاهب اذن الى أراس

أما المحافظ فانه رجع عائدا الى منزله فصعد الى غرفته و نام في الساعة الثامنة و نصف

وكان ذلك بمنتهى البساطة غير أن خادمته أنكرت نومه مبكرا وأخبرت به أمين الصندوق ثم قالت له

اني أخشى أن يكون مريضاً فقد رأيته بجهم الوجه

ولم يكن هـذا الذي تخشاه ولـكنها أرادت أن تتخذ حجة لاخباره هذا الخبر التافه

وكان أمين الصندوق يقيم في نفس المنزل وغرفته كائنة تحت غرفة المحافظ

فلم يأبه لـكلام الخادمة ونام حسب عادته

وقد صحا عند انتصاف الليل لضجيج سمعه فوق رأسه فأصغى فعلم أنه صوت خطوات رجل يسير ذهاباً وإياباً في أرض الغرفة وأيقن أنها خطوات المحافظ

وقد عجب من ذلك فان المحافظ لم يكن يستفيق إلا في ساعة معينة عند الصباح

ولبث مصغياً فسمع بمدهنيهة صوتاً يشبه صوت باب خزانة فتح وأقفل

وقد تلاه صوت قطعة من الاثاث تنقل من موضعها ثم ساد السكوت وعاد المحافظ الى المسير ذهاباً واياباً في الغرفة

فنهض عند ذلك من سريره ورأى من زجاج نافذته خيال نور أحمر ينبعث فوق الجدار المقابل لنافذة المحافظ

وكان النور يضطرب وهو شديد الاحمرار مما يدل على أنه نور نار موقدة لا نور مصباح

ففتح النافذة وأطل فلم يهتد الى شيء ثم ضعف ذلك النور ثم تلاشى وعاد المحافظ الى المسير

فأقفل أمين الصندوق النافذة حذراً من البرد وعاد الى الرقاد واليك تفصيل ما حدث

***

لاشك أن القارئ علم مما تقدم أن هـذا المحافظ الذي كان ينتحل اسم الأب مدلين ما كان إلا جان فالجان

وقد حان الآن أن ندعوه باسمه وأن نشرح للقراء حقيقة أمره فنقول

لقد عرف القراء ما كان منه حين سرق قطعة النقود من الغلام القروي المدعو جرفيه

فمن ذلك اليوم انقلب انقلاباً عجيباً فلم يكن كما كان يريد أن يكون بل صار كما أراد أن يجعله الأسقف

وقد بدأ بالاحتجاب عن عارفيه ففاز بما أراد وباع الاواني الفضية التي وهبه الاسقف اياها فلم يبق منها غير شمعدانين حفظهما تذكاراً من ذلك الرجل العظيم الذي كان علة انقلابه

ثم جعل يطوف من بلد الى بلد فاجتاز أكثر مدن فرنسا حتى انتهى الى مدينة م وهى المدينة التي يقيم فيها الآن

ولم يكن له بعد انقلابه غير غرضين في هذه الحياة وهو اخفاء اسمه والتكفير بحسناته عن ذنوبه الماضية تزلفاً من رضى الله

على أنه مع مبالغته في تنكره واخفاء اسمه استبقى الشمعدانين ولبس الحداد على الاسقف حين موته ولم ينقطع عن السؤال في كل يوم عن ذلك الغلام القروي

فلما ذكر له جافرت اسم جان فالجان ارتعش واصفر وجهه مخافة من فضيحة أمره

ولم يكن ارتعاشه لخوفه من العودة الى السجن بعد سرقته الغلام وانتحاله غير اسمه وخداع الحكومة بتعيينه في مناصب الحكام

بل كان كل خوفه أنه اذا افتضح أمره وأعيد الى السجن انقطعت عنه موارد الكسب ولم يعد في وسعه للتكفير عن ذنوبه بما كان يبذله من الحسنات

وفوق ذلك فقد رأى ما سمعه من جافرت عن ذلك الرجل المنكود الذي توهموا أنه جان فالجان

فكان أول ما خطر له أن يذهب مسرعاً الى اراس فينقذه ويحل محله باذاعة اسمه

ولكنه ما لبث أن ذعر من هذا الخاطر فرجع عنه مؤثراً استبقاء نفسه وذهب في ذلك اليوم والحزن ملء قلبه لعيادة فانتين فأطال زيارته وبالغ في توصية الراهبين بالعناية بها لانه كان لا يزال يخشى أن تدفعه مروءته الى تلك التضحية الكبرى فيذهب وهو آمن على تلك المنكودة التي أنقذها من وهدة الشقاء فأنزلت كل آمالها به

وعاد الى منزله وهو يفكر بذلك المنكود الذي سيعاقب باسمه ورأى أنه لا بد من الذهاب الى اراس فاذا لم يسلم نفسه بدلا منه فانه يحضر محاكمته على الاقل

ولذلك ذهب فاستأجر المركبة كما قدمنا وعاد الى منزله

وقد أقام فيها يفكر بتلك التضحية الكبرى وهو يكاد يجن لتردده فيها فانه كان تارة يفتكر أنه بات من كبار الحكام وأنه يكسب

في كل عام من معمله ما يزيد على مليون فرنك وأنه ينفق معظم هذا المال على الفقراء والمساكين

ثم يفكر أن مئات من العائلات تعيش من العمل بمعامله فاذا سلم نفسه خربت تلك المعامل وعادت تلك العائلات الى ما كانت عليه من الفقر وعاد هو إلى سجن طولون فلا يخرج منه الا محمولا على اكتاف الرجال الى الظلمة الأبدية

فكان حين تجول في نفسه هـذه الخواطر وتتمثل له تلك النكبات التي سيجرها على الفقراء ينخلع قلبه من الخوف

ثم يتراءى له ذالك الشيخ المسكين الذى سيعاقبونه معاقبـة مجرم من أهل السوابق ويحكمون عليه بالسجن المؤبد لسرقة تفاحة من بستان فيقضي بقية حياته مظلوماً شقياً مقهوراً في ظلمات السجن لانهم حسبوه جان فالجان

وهو أي جان فالجان الحقيقي مقيم في قصره يتنعم بـلاذ الحياة ويتنعم باحترام الناس من غـير حق في حين ان كلمة منـه تنقذ ذلك المنكود الذى لا ذنب له إلا ان الطبيعة جعلت بينهما تشابهاً في الوجه واتفاقاً في العمر

فكان اذا خطر له ذلك تعود اليـه جرأته ويقرعه ضميره فينزوى على انقاذ الرجل بتضحية نفسه

وقد اقام يفكر وهو في اشـد حالة من الاضطراب ثم رأى ان النور يزعجه ويقطع تيار فكره فأطفأه وعاد الى التفكير

وقد تمثل له وهو يفتكر انه واقف في ظلمات الليل على شفير هاوية بعيدة الغور وتمثل له شبح ارسلته الاقدار وارادت أن تزجه بدلا منه الى الهاوية فانتبه كمن يستفيق اتركابوس وعاد فأضاء مصباحه وجعل يناجي نفسه فيقول

ما هذا الضعف الذى تولاني ومما الخوف . . . اني نجوت وانتهى كل أمر اذ لم يكن موجوداً غير باب واحد يستطيعون الاشراف منه على ماضي حياتي وقد أقفل هذا الباب فلا يفتح الى الابد

ولم يكن يخيفني ويقلق راحتي غير جافرت اذ كنت أرى انه مشكك بي وكنت مصيباً فانه عرفني ووشى بي

أما الآن فقد وجد جان فالجان الذي يبحث عنه وجاء الي معتذراً مما يدل على أنه لم يبق في نفسه أقل مجال للريب فمحا الخوف

وبعد فأية اساءة اسائها فاذا كان ذلك المنكود أصيب فم ذلك بذمتي .. أنا الذي وشيت به لخلاص نفسي .. كلا بل كان كل ذلك بتدبير العناية ويحق لي أن أعترضها فيما تريد

وبعد فلماذا أحزن وماعساى أريد بعد فان كل ما طلبته الى الله بعد توبتي من علي به

وهذا الذى أراده الله أينفعني أن أخالف ارادته المقدسة . . انه هو الذي أراد أن اكفر عن ذنوبي بالتوبة وصالح الاعمال وهو الذي أراد أن يجعلني من الاغنياء كى أنفق معظم أموالي

على البائسين وأكون قدوة خير لاولئك الاغنياء البخلاء

وقد فعلت كل ماأراد أن أفعله فما الخوف

نعم هذا الذى يجب أن أفعله فلا دع المقادير تجرى فى أعنتها وليفعل الله مايشاء

وقد قال هـذا القول مناجياً نفسـه به وقام يمشى فى أرض الغرفة بخطوات غير موزونة وهو يحسب أنه حل هـذه المشكلة الكبرى

غير أنه لم يكن يجد شيئاً من الارتياح بحلها بل كان منقبض الصدر حزين النفس وقد عاد اليه تقريع الضمير فما زال يعذبه حتى رجع عن فكره الاول واعتمد على انقاذ السجين

وعندذلك قام الى دفاتره وأوراقه فرتبها وأخذ جميع السندات التى كان يعلم أن أصحابها فى ضيق فاحرقها كى لايطالبهم أحد وكتب رسالة ثم ختمها وعنونها باسم لافيت الصراف المشهور فى باريس

ثم أخرج من درج محفظة تحتوى على أوراق مالية وجوازه الذي ذهب به يوم حضر الانتخابات

وقد وضع في جيبه كتاب لافيت والمحفظة وعاد الى المسير ذهابا وإيابا فى الغرفة

فكان فى كل حيز يخيل له أنه يرى الواجب يكتب أمامه فى تلك الظلمات بحروف النور هذه الكلمات

« أذهب الى أراس فقل من أنت وأنقذ المظلوم »

وكان يرى أيضاً فى ظلمات أفكاره مبدأيه الذين كانا الى الآن قاعدة حياته وهما اخفاء اسمه وتطهير نفسه

وكان يعتقدان هذين المبدأين متلازمان متماسكان فوجدبون عظيما يفرق بينهما وان الواحد منهما حسن صالح وأما الآخر فقد يكون شراً وان أحدهما الاخلاص والآخر الانانية وإن أحدهم يقول « القريب القريب » والآخر يقول « أنا أنا » وإن أحدهما يأتى من النور والآخر يشتق من الظلمة

ثم خيل له أنهما يتخاصمان ويتنازعان بينما هو تائه فى مهامه التفكير بل أنه رأى بعين فكره أنهما كبرا وعظما فباتا كتمثالين من تماثيل الجبابرة العظام فيجاربان في داخل نفسه بين النور وبين الظلام

وقد أصيب برعب عظيم ثم شعر أنه بلغ الى أبعد حد من ضميره والى أقصى مدى مما كتب له في يوم المقدور وان الاسقف قد رسم له نقطة من حياته الجديدة فأتمها الاب شان ماتبو وما زالت هذه الافكار تتجاذبه الى أن تعب دماغه فجعل يفتكر بأمور خارجية

ولكن هذا الفكر لم يلبث أن تسلط عليه بالرغم عنه فقال في نفسه

نعم لقد عولت على أن أذيع حقيقة أمرى وأشهر ابني دون

أن يثنيني شيء عن هذا الخاطر

ولكن ماأصنع بفتاتين وبنتها تلك المرأة المنكودة التى تابت عن يدي أصدق توبة وجعلت كل اعتمادها على بعد الله وهنا عاد الى ردده فقال

نى الى الآن لم أنظر الا الى نفسي فاني اذا بحت بأمري أو كتمته وتركت عيش الحكام راضياً بعيش السجون كان كل ذلك متعمقاً بى دون سواى وهـذا الذى يدعونه بحب الذات فما بالى لا افتكر بسواى

وما هذا الذي أراه محيطاً بى كيفما سرت . . اني لاأجد غير عمال ومعامل وشيوخ ونساء وبنات وأطفال يعيش بذمن الاشتغال في هذه لمعامل وأنا الذى أنشأتها بل أناسبب حياة هؤلاء المساكين وعلة نعمتهم

واذا أقفلت تلك المعامل وانزويت فى ظلمات السجون فكيف يعيشون بعدى

وهذه المرأه المنكودة التى كنت سبب شقائها دون أن أريد فصرت علة هنائها كيف يكون مصيرها بعدى اما يجب علي أن أدون عليها وأصلح ماأفسدت

نها ستموت بعدى ولا يعـلم غير الله مايكون مصير طفلتها وهذا مايكون اذا أشهرت أمري فما عسى يكون لو بقيت محافظاً على الكتمان

ان هذا الرجل يذهب إلى السجن المؤبد وهو مالا ريب فيه ولكنه سرق وهذا لاريب فيه أيضاً

أما أنا فابقى هنا وتبقى المعامل تشتغل والناس يرتزقون ثم نى أكسب فى مدة عشرة أعوام عشرة ملايين فرنك فأنفقها فى البلاد ولا أبقى منها شيئاً لنفسى فأكون قد أحسنت الى الصناعة وإلى البلاد والى الالوف من العائلات

وهذه المرأة التعسة تشفي وتربى طفلها وتنقطع الذنوب والآثام باتساع مجال الرزق فلا يدعو الى الذنوب غير الفقر فكيف أشهر نفسي وأكون علة كل هذه النكبات

أأقتل شعباً برمته فى سبيل انقاذ لص من السجن . أأدع أماً تموت قانطة وطفلة تموت دون أن ترى أمها وكل ذلك لاشترى ذمة لص بشقاء ألوف من الناس الابرار

وبعد فان هذا الشيخ لم يبق له غير بضعة اعوام يعيشها وهو قد عجز عن العمل وبات في كل ساعة عرضة للجوع الا يكون السجن خيراً له فانه على الاقل لايموت فيه من الجوع ومن كانت هذه حاله أتفتدى به أمة بأسرها مؤلفة من أمهات وبنات وأطفال

ولننظر الآن آخر نظرة فى هذا الباب ولنفرض اني اذا كتمت أمري أسأت الى هذا الرجل وان ضميرى لا بد أن يؤنبني يوما لهذه الاساءة

بل لنفرض أن الله سيعاقبني عليها اما أكون قد رضيت توبيخ الضمير وعذاب التأنيب وغضب الله واحتملت كل ذلك على عاتقي من أجل هناء الناس فأي تفكير أجل من هذا التفكير بل أي فضيلة واخلاص أعظم من هذه الفضيلة وهذا الاخلاص

وقد وقف عند ذلك وجعل يمشي وعلائم الارتياح بادية بين عينيه فان الماس لايجدونه إلا في ظلمات الارض وهكذا الحقيقة فانها لا توجد إلا في اعماق الفكر

وقد قيـل له انه نزل الى تلك الاعماق . وتمس في تلك الظلمات فعثر على تلك الماسة الوهاجة وظفر بتلك الحقيقة الناصعة فجعل ينظر اليها بعين الخيال ويقول

نعم لقد ظفرت بما كنت أنشـده فلا سبيل الى الرجوع فان ذلك ليس لخيري بل لخير جميع الناس

ني كنت ادعى مدلين وسأبقى مدلين والويل لجان فالجان فما أنا هو .. اني لا أعرف هذا الرجل فاذا وجد من يدعي بهذا لاسم فليتدبر كما يستطيع فذلك لا يعنيني .

لقد قدر هـذا الاسم أن يكون ويلا وشؤماً على حامله فمن قدر له ان يتسمى به فليعاتب القدر

وقد نظر عند ذلك إلى وجهه في المرآة وقال

لقد بدت علائم الارتياح على وجهي بعد ان صحت عزيمتي والحمد لله

ثم مشى قليلا وعاد الى الوقوف فقال

أما وقد صحت عزيمتي فلم يبق سبيل إلى التردد ولا يجب ان أدع عندي أثراً يدل على أني صاحب هذا الاسم المشؤم

وانه يوجد في هذه الغرفة نفسها أشياء تتهمني وتكون علي أفصح شهود

ثم أخـذ كيسه من جيبه فأخرج منه مفتاحاً مغبراً و ادخله في ثقب من الجدار لم يكن يرى لصغره وأدار المفتاح ففتح بابا كان مغطى بالاوراق الملصقة بالجدار فلم يكن يرى

وظهر وراء ذلك الباب خزانة لم يكن فيها غير ملابس أحنى عليها القدم وعصا معقدة وجراب من الجلد

وهي تلك الملابس التي رأينا فيها جان فالجان حين خرج من سجنه في سنة ١٨١٥

وكان قد احتفظ بها كما احتفظ بالشمعدانين اللذين أخـذهما من الاسقف كي يذكر بها كيف كان قبل التوبة

غير انه كان يخفي تلك الملابس التي أخذها من السجن ويبدي الشمعدانين اللذين انتقلا اليه من الاسقف

وقد نظر نظرة حذر إلى الباب كأنه يخشى أن يدخـل اليه أحد وهو يقفل ثم أخذ مسرعاً كل هذه الملابس التي طالما احتفظ بها وألقاها في النار

وبعد ذلك أقفل تلك الخزانة ووضع عند بابها منضدة كي تخفي ذلك الثقب مبالغة في حذر لم يعد في حاجة اليه

وقد انبعث نور أحمر حين احتراق الثياب فجعل يمشي في أرض الغرفة دون أن ينظر إلى النار

وفيما هو يسير رأي الشمعدانين فقال في نفسه

ان هذين أيضاً يدلان علي فلابد من اتلافهما

وكان يوجد في المستوقد كثير من النار فحركها بواحد من الشمعدانين حتى اشتد التهابها ثم ألقى الاثنين في النار

وعند ذلك خيل له انه يسمع صوتاً يناديه

جان فالجان .. جان فالجان

فوقف شعر رأسه وجمد الدم في عروقه من الرعب وخيل له أن هذا الصوت يخاطبه فيقول

أتم ما تعمله يا جان فالجان واحرق هذه المصابيح الفضية واقتل تذكارها وانس الاسقف بل انس كل شيء .. ودع ذلك المنكود شان ماتيو وافعل ما راق لك فعله .. ولا تكترث بهذا الشيخ العجوز الذي قد يكون بريئاً والذى أصبح اسمك ويلا عليه والذى سيعاقب بجرائمك ويقضي أواخر أيامه في ظلمات السجن

أما أنت فعش شريفاً مكرماً وحاكما معظما تنجد الملهوف وتغيث الفقير وتربي اليتيم وتجير السائل

وبينما تكون هنا راتعاً في ظلال النعيم لا يعوزك شيء من أسباب الراحة يكون ذلك المنكود مقيما مكانك في غياهب السجن

يربطك في قيود الذل ويتميز الموت في كل حين وهذا الذي اخترته لنفسك أيها الشقي

فسال العرق البارد من جبينه لهذه النجوى وعاد ذلك الصوت الخفي صوت ضميره الى مناجاته فقال

ياجبان فالجان انك ستسمع من حولك أصواتاً كثيرة تمجدك وتباركك وتدعو لك الله بالقلوب والألسنة

ولكنك ستسمع أيضاً صوتاً خافتاً ضعيفاً لا يسمعه سواك وهذا الصوت يلعنك في الظلمات

اذن فاعلم أيها الشقي أن كل تلك الاصوات التي تباركك تسقط الى الارض قبل أن تصل الى السماء

أما ذلك الصوت الذي يلعنك فهو وحده الذي يصل الى مسامع الله

وكان هذا الصوت الذي يناجيه ضعيفاً في البدء ثم ارتفع فصار يسمعه باذنيه بعد ان كان يسمعه بضميره

ثم قيل له انه خرج منه وانه سمع كلماته الاخيرة جلية واضحة حتى انه جعل ينظر في الغرفة الى ما حواليه بملء الرعب ويقول بصوت مرتفع مضطرب

من هنا من هذا الذي يتكلم

ثم ضحك ضحك البلهاء وقال

ويح لنفسي العلي جننت ومن عسى يكون عندي وقد عاد

إلى المشي في الغرفة بخطوات مضطربة جعلت امين الصندوق يستيقظ من رقاده

وعاد اليه ذلك التردد بين الامرين فلم يعلم أيهما يتبع وجعل يقول:

رباه اهدني فقد ضللت السبيل

***

ولبث على هذه الحالة الى الساعة الثالثة بعد انتصاف الليل أي انه بقي خمس ساعات يسير هذا السير وهو لا يعلم

إلى أن أعياه التعب فاضطجع ونام فحلم حلما يظهر انه أثر عليه تأثيراً عظيما حتى انه كتبه فقد وجد مكتوبا بخط يده بين أوراقه

ونحن ننقله هنا كما قرأناه فقد كتبه ووضعه في غلاف كتب عليه « الحلم الذي حلمته في تلك الليلة »

« قد وجدت نفسي في برية قاحلة جرداء لا عشب فيها »
« ولم يكن الوقت لا نهاراً ولا ليلا . فجعلت اسير فيها مع أخ »
« كان لي في عهد الحداثة وهو أخ لم يخطر لي في بال ولم أذكره »
« على الاطلاق في ما مر بي من أدوار حياتي »

« وكنا نتحدث والناس يمرون بنا فكان حديثنا قاصراً »
« على جارة لنا كانت تشتغل دائما عند نافذة مفتوحة فكنا »
« نشعر بالبرد ونحن نتحدث بسبب هذه النافذة المفتوحة »
« ولم يكن يوجد أشجار في تلك البرية فرأينا رجلا مر »

« بنـا وهو عار من الملابس له لون كلون الرماد وقد امتطى
« جوداً يشبه لونه لون التراب »
« وكان هذا الرجل حاسر الرأس أصلع تظهر العروق بارزة »
« في جلدة رأسه وهو يحمل في يده قضيباً ليناً كاغصان الكروم »
« وثقيلا كالحديد »
« وقد مر بنا هذا الفارس دون أن يقول لنا كلمة »
« فقال لي أخي هلم بنا نسر في هذه الطريق المجورة »
« وكان هناك طريق مجوفة لا نبت فيهـا على الاطلاق حتى »
« أن لون سمائها كان يشبه لون ارضها »
« فبعد أن سرنا بضع خطوات شعرت اني أتـكلم وحدي »
« دون أن أسمع من يجيبني فالتفت فلم أجد أخي »
« فدخلت الى أول قرية رأيتها وقلت في نفسي »
« ان هذه القرية لابد أن تكون قرية رومنفيل »
« وقد وجدت أول طريق سلكتها قفراء فسلكت الطريق »
« الثانية فلقيت رجلا واقفاً فقلت له »
« ما هذا البلد »
فلم يجبني »
« ورأيت باب منزل قد فتح فدخلت اليه »
« وقد دخلت الى أول غرفة فوجدتها خالية فدخلت الى »
« الثانية فوجدت رجلا مستنداً الى جدارها فقلت له »

« لمن هذا المنزل وأين أنا »

« فلم يجبني بشيء »

« وكان لهذا المنزل حديقة فخرجت من المنزل ودخلت اليها »

« فرأيت وراء أول شجرة رجلا واقفاً فقلت له ،

« لمن هذه الحديقة وأين أنا »

« فلم يجبني الرجل بشيء »

« فخرجت أهيم في تلك القرية ثم لاحظت انها مدينة ولكن »

« جميع شوارعها كانت مقفرة وكل أبواب منازلها مفتوحة ولم »

« أحد أحداً يتجول في الشوارع أو يتنزه في الجنائن أو يظهر »

« في البيوت »

« ولكن كان يوجد عند زاوية كل شارع ووراء كل باب »

« وخلف كل شجرة رجل واقف صامت »

« كان هؤلاء الرجال يرونني أمر دون أن يتكلموا »

« وقد خرجت من المدينة إلى الحقول فلما وصلت اليها التفت »

« ورائي فرأيت جمهوراً من الرجال وعرفت انهم اولئك الرجال »

« الذين كنت أراهم متفرقين في المدينة في الشوارع والابواب »

« والحدائق »

« وكانت رؤوسهم غريبة الشكل ورأيتهم لا يسرعون في المسير »

« ومع ذلك فقد كان سيرهم أسرع من سيري وهم يمشون دون »

« أن يسمع لخطواتهم صوت »

« ولم تكن غير هنيهة حتى أدركوني وأحدقوا بي وكانت
« ألوان وجوههم أشبه لون التراب »
« وعند ذلك رأيت الرجل الاول الذى لقيته حين دخولي
« الى المدينة فقال لي »
« الى أين أنت ذاهب أيها الرجل ألا تفهم أنك ميت من
« عهد بعيد »

وقد صحا من رقده وهو يشعر ببرد شديد من هواء الفجر فقد نام والنافذة مفتوحة والنار قد انطفأت في المستوقد والفجر لم ينبثق بعد

فذهب الى النافذة فاطل منها وهي تشرف على ساحة المنزل فلم ير نجما في السماء ولكنه وجد في تلك الساعة نجمتين لامعتين فكان لا يزال شبه نائم فقال في نفسه

ما هذا الذي أراه أهل نجوم السماء سقطت الى الارض

على انه لم يلبث أن صحا أتم الصحو وعلم ان هاتين النجمتين مصباحا مركبة فقال في نفسه

ما هذه المركبة وما وقوفها عند باب منزلي

وعند ذلك قرع باب غرفته قرعاً خفيفاً فقال من الطارق

فأجابه صوت من الخارج يقول

هذا أنا يا سيدى المحافظ

فعرف انه صوت خادمته وقال لها ماذا حدث

قالت لقد بلغت الساعة الخامسة من الصباح

— أية شأن لي في الساعة الخامسة

— ان المركبة اتت يا سيدي

— أي مركبة

— أما أوصى سيدى المحافظ أن يأتوه بمركبة في هذه الساعة

— كلا

— ولكن السائق يقول انه قادم خصيصاً اليك

— اي سائق هذا

— انه آت من قبل الموسيو سكوفر

فارتعش حين سمع هذا الاسم وعادت اليه ذاكرته فقال نعم لقد ذكرت

ولو رأته الخادمة في تلك الساعة لرعبت لمنظره فقد كان واقفاً امام الشمعة وذوف البلهاء يعبث بيده بفتيلها

وطال وقوفه حتى اضطرت الخادمة الى العود الى طرق الباب وقالت له

ماذا يأمر سيدي المحافظ أن أجيب السائق

قال قولي له ينتظرني قليلا فاني نازل اليه

*

وبعد هنيهة نزل الى المركبة واضجع سرجه وجلس مكانه في

المركبة ثم دفعها والظلام لا يزال مشتدالحلك فانطلق جوادها انطلاق السهم

وكان جان لا يزال على ما هو فيه من الاضطراب والتردد لا يعلم الى أين يسير

نعم انه كان يعلم ان وجهته أراس ولكنه لم يكن يعلم لماذا يذهب اليها سوى انه حين يصل سيحضر محاكمة ذلك الرجل الذي دعوه جان فالجان وما عليه من حضور هذه المحاكمة فقد أجمع الشهود على ان هذا الرجل هو نفس جان فالجان

ولكنه كان يود لو بقي في منزله ولم يرحل هذه الرحلة

وكان كل مار بمنزل يقول في نفسه ان أهل هذا المنزل لا يزالون نائمين

وقد وصل الى هسدن عندما بزغ النهار فوقف عند أحد الفنادق كى يريح الجواد ويعطيه العلف فقد كان جواداً كريماً كما قال عنه صاحبه فانه قطع خمس مراحل بساعتين دون أن يسيل منه نقطة عرق

وكان جان قد بقي فى المركبة فلم ينزل منها فلما جاء خادم الفندق يعلف الجواد وقف هنيهة ينظر فى دواليب المركبة ثم دنا من جان وقال له

أتعلك تسير مسافة بعيدة فى هذه المركبة ياسيدى

قال لماذا تسألني هذا السؤال

قال لان هذا الدولاب لم يبق صالحا لان يقطع ربع مرحلة

دوثب جان من المركبة وقال ماذا تقول

قال نى أعجب كيف لم ينكسر فى الطريق فنهوى بك المركبة إلى إحدى الحفر تمال وانظر ياسيدى

ددنا جان من الدولاب وفحصه فاذا به كما وصفه الغلام فسأله قائلا

ألا يوجد حداد هنا

— دون شك

— أرجو أن تسرع وتأتينى به

— انه ياسيدى هنا على قيد خطوتين منا

وبعد هنيهة أقبل الحداد فقال له جان

هل تستطيع أصلاح هذا الدولاب

— دون شك

— متى أستطيع مواصلة السفر

— غداً

— ماذا تقول

— دون غداً ياسيدي ان اصلاحه يحتاج الى يوم بجملته فهل أنت مستعجل

— مستعجل جداً ولا بد لى من السفر بعد ساعة

— هذا محال

— انى أدفع قدر ماتشاء

— قلت لك هذا محال ياسيدي

— واذا صبرت ساعتين

— لايمكن إصلاحه بأقل من يوم أى انك لانستطيع السفر ياسيدي قبل غد

— ولكن بقائى الي الغد مستحيل أيضاً ألا يمكن استبدال هذا الدولاب بدلا من إصلاحه

— كيف ذلك ياسيدى

— إنك حداد كما تقول

— هو ذاك

— ألا يمكن أن يكون عندك دولاب جديد أشتريه وأواصل السفر

— كلا لا يوجد عندى دولاب فرد

— ألا يوجد زوج

— نعم ولكن ليس كل الدواليب توافق كل المركبات

— جرب عسى تنفع التجربة

— لا فائدة من التجربة ياسيدى فان الدواليب التي عندى لاتصلح الا للمركبات الصغيرة

— ألا يوجد هنا مركبة للبيع أو للاجرة

— كلا ياسيدى ولكن يوجد مركبة أوردها عندي أحد

الاسياد وهو لايركبها الا فى اليوم السادس والثلاثين من كل شهر فاذا شئت أجرتك اياها بشرط أن لايراها صاحبها . وهى من نوع المركبات التى تحتاج الى جوادين

— اذن استأجر جوادين من اصطبل البريد

— الى أين أنت ذاهب ياسيدي

— الى أرأس

— وتريد أن تصل اليها اليوم

— دون شك

— هذا محال ياسيدي الا اذا كنت ترضى أن تصل فى الساعة الرابعة من الصباح

— وهذا محال أيضاً ولكن لماذا لاأصل قبل الساعة الرابعة

— لان الطريق خربة ومعظم الجياد الآن في الحقول فلا بد لسيدي أن ينتظر مليا فى كل محطة

— اذن اذهب فارساً على جوادمركبتي ألا يوجدسرج جواد للبيع هنا

— دون شك ولكني لا أرى هذا الجواد صالحاً للركوب فانه من جياد المركبات

— لقــد أصبت فقد أخبرني صاحبه بذلك ولكن لا أجد هنا جواداً للاجرة

— أتريد جواداً يصل بك الى اراس فى آخر النهار

— نعم

— هذا محال أيضاً اذ لابد لك من جواد كريم لا يمكن أن تجده هنا

— إذن ماذا أعمل

— خير ما تعمله يا سيدى أن تنتظرالى أن أصلح دولاب مركبتك فتستأنف السير غداً

— غداً يفوت الاوان فتى تمر من هنا مركبة البريدالذاهبة إلى أراس

— في الليلة القادمة

— اذن أنت تحتاج الى يوم بجملته لاصلاح الدولاب

— نعم وسنكون عاملين نشتغل فيه

— واذا أشركت معك عامل آخر

— انه لا ينجز قبل يوم ولو اشتغل فيه عشرة عمال

فلما يأس جان من الحداد بعد بذل كل ما يمكن بذله من الوسائط وسر سروراً عظيما وقال في نفسه

لا شك ان يد الله قد كسرت هذا الدولاب كي لا أصل الى أراس ساعة المحاكمة

وقد تنهد تنهد ارتياح طويل وشعر أن هذا القيد الحديدى الذى كان يثقل عنقه ويضيق أنفاسه قد انقطع واستراح من عبئه وأيقن أن الله لا يريد له الشقاء فقال في نفسه

لقد فعلت كل ما يجب عليّ فعله ولم يبق إلا أن أعود من حيث أتيت

ولو كان حديثه الذي بسطناه مع الحدادجري في غرفة مقفلة لما سمعه أحد ولما تمكنا من روايته

لكنهما كانا يتحدثان في قارعة الطريق والناس من حولهما يذهبون ويجيئون وبعضهم يقفون فيصغون إلى الحديث

وكان من جملة الذين سمعوه غلام من أهل القرية فانه بعد ان سمع حديث الحداد انفلت من الناس وأسرع راكضاً وعاد إلى جانب تصحبه امرأة عجوز فقالت له

... أخبرني ولدي ياسيدي انك تريد استئجار مركبة

فسال العرق البارد من جبينه حين سمع قولها وخيل له أن يد الله التي أرادت إنقاذه تخلت عنه فأجاب العجوز قائلا

نعم اني أبحث عن مركبة للاجرة ولكن لا يوجد مركبة في هذه القرية

قالت بل يوجد ياسيدي

— أين ذلك

— عندي

وأخذت تظهر له محاسن مركبتها وهو مشتت البال حائر الفكر حتى اذا فرغت من أقوالها استأجر تلك المركبة وخرج بها من تلك القرية لا يلوي على أحد

ولم يكد يسير قليــلا حتى سمع صوتاً يناديه فأوقف المركبة ورأى غلاماً يسرع راكضاً اليه

فسأله قائلا وقد عاوده شيء من الرجاء

ماذا تريد يا بني

قال اني أنا هو الغلام الذي دبرت لك المركبة فلم تكافئني بشيء

فهاج هذا الغلام غضبه إذ لولاه لكان عاد إلى بلده واستراح ولم يعطه شيئاً وهو لم يكن يعد فقيراً بل انتهره مغضباً وضرب جواده بالسوط فانطلق به يسابق الرياح

وكان قد أقام مدة طويلة في هسدن فجعل يعوض عما فاته من الوقت بالسرعة

ولكن المركبة كانت شديدة الثقل فوصل إلى سانت بوث أي انه قطع خمس مراحل بأربع ساعات

وهناك تغدى وأراح الجواد ثم استأنف السير حتى وصل إلى تنيك عند غروب الشمس

وقد رآه هناك رجل من الذين يصلحون الطريق فاشفق على الجواد وقال له

لقد أتعبت جوادك كثيراً يا سيدي ألعلك ذاهب إلى أراس

قال نعم

قال انك اذا دفعت جوادك على هذا النمط مات في الطريق قبل أن يصل

قال كم مرحلة بعد إلى أراس

— سبع مراحل

— عجباً فان الخريطة تشير إلى خمس مراحل

— ذلك لانهم يصلحون الطرقات الآن وسترى بعد مسير ربع ساعة ان الطريق لا تسلكها المركبات

— أحق ما تقول

— نعم ولا بد لك حينئذ أن تعطف إلى الشمال وتسير في طريق كارنسي فتجتاز جدولا صغيراً حتى تصل إلى كاملين وهناك تعطف الى الجهة اليمنى فتسير في الطريق المؤدية الى أراس

— ولكن هو ذا الليل قد هجم فقد أضل الطريق

— ألست من أهل البلاد

— كلا

— أتأذن لى يا سيدي أن أسديك نصيحة

— ما هي نصيحتك

— هي أن تريح جوادك فانه شديد التعب ثم تدخل إلى هذا الفندق فتبيت فيه وعند الفجر تستأنف السير إلى أراس

— ولكن لا بد لى أن أكون فيها هذا المساء

— اذا كان ذلك فاذهب الى هذا الفندق وسل صاحبه أن يرسل معك دليلا على جواد فيرشدك الى الطريق

— هذا خير رأى

وقد تركه شاكراً وعمل بنصيحته وبعد نصف ساعة مرت مركبته بذلك المكان يخفرها فارس ولم يكن هذا الفارس غير الدليل

فلقى عناء شديداً الى أن بلغ أول قرية قبل أراس فى الساعة السابعة من المساء ولم يبق له غير اجتياز ثلاث مراحل

ولم يكن يعلم الساعة المعينة لعقد الجلسة فجعل يقول فى نفسه ان المجالس تفتتح عادة فى الساعة التاسعة من الصباح وتنتهى الاعمال فى الساعة السادسة من المساء فاية فائدة بقيت من قدومي وقد وصلت بعد فوت الاوان

***

على أنه لم ييأس ودفع جواد مركبته بعد ان جلده بالسوط بعنف فاجتاز المراحل الباقيـة بأقل من ساعة ووصل الى أرس نحو الساعة الثامنة

وقد أوقف الدليـل مركبته عند باب فنـدق البريد وذهب بالمركبة إلى الاصطبل

ودخل جان إلى ذلك الفندق وجلس فى إحدى قاعاته فجاءته صاحبته وسألته قائلة

هل يريد سيدى أن يتعشى

فاجابها باشارة سلبية

قلت ان خادم الفنـدق يقول ان جواد سـيدى الذى كان يقود مركبته قد أنهكه التعب

فاجابها قائلا

ألا يمكن لهذا الجواد أن يعود فى صباح غد

قالت كلا ياسيدي فانه يحتاج الى الاستراحة يومين على الاقل

— أليس هنا مكتب البريد

— نعم

— أرجو أن ترشديني اليه

فأرشدته اليـه وهناك أراح جوازه وسألهـم اذا كان يمكنه العودة غداً الى مدينة م .

وكان يوجد محل خال فى مركبـة البريد فاستأجره وسأل عن ميعاد السفر فقيل له فى الساعة الاولى بعد انتصاف الليل

وعند ذلك برح الفندق ودخل الى المدينة وكان الظلام حالكا وهو لايعرف المدينة من قبل

وما زال يسير فى شوارعها حتى انتهى الى شارع ضيق وهناك لقى رجلا فسأله قائلا

هل لسيدي أن يرشدنى الى مكان المحكمة

قال أرى أنك غريب البلاد وأنا ذاهب الى تلك الجهة فاتبعنى ياسيدي أرشدك فان المحاكمات تجرى إلى الآن في سراى البوليس لانهم يصلحون سراى المحكمة

قال هناك تجرى جلسات الاستئناف

قال دون شك فاذا كنت ياسيدى تريد حضور جلسة فقد فات الاوان فان المحاكم تقفل عادة فى الساعة السادسة وما زالا يسيران حتى انتهيا الى بناية شاهقة فأوقفه الرجل عندها ودله على أربع نوافذ كان ينبعث منها النور فقال له

أظن ياسيدى أنك وصلت قبل فوت الاوان فان المحاكم لا تزال تشتغل لاشك أن إحدى الجلسات الخطيرة قد طال أمرها فاضطروا إلى السهر فهل أتيت شاهداً فى هذه الجلسة أو لك قضية خاصة

قال لا هذا ولا ذاك بل أتيت لاقابل أحد المحامين

قال اذا كان ذلك فقد اختلف الامر وهذا الباب فما عليك الا أن تصعد السلم

قصد السلم الذى دله عليه وبعد هنيهة كان عند باب قاعة كثر فيه الزحام

وقد لقى هناك أحد المحامين فسأله قائلا

الى أين وصلوا ياسيدى

قال لقد انتهى الامر

قال انتهى

وقد قال هذا القول بلهجة استلفتت أنظار المحامى فقال له

ألعلك من الاقرباء ياسيدى

قال كلا فانى لاأعرف أحداً هنا فهل صدرالحكم

— دون شك فان ذلك لايمكن أن يكون الا كما كان

— بالاشغال الشاقة

— الى الابد

— وهل تثبتت هويته

— أية هوية تعنى فليس في هذه القضية هوية يجب اثباتها بل ان الامر بسيط فان هـذه المرأة قتلت ولدها والجريمة ثابتة فصدر الحكم في الحال

إذن هي امرأة

نعم وهى ابنة ليوسبن وأنت عمن تسأل

— لاشيء ولكنك قلت لى ياسيدي ان كل شيء قد انتهى فاذا كان ذلك فكيف لاتزال قاعة الجلسات منورة

— لانهم يتحاكمون فى قضية أخرى بدأوا بها منذ ساعتين

— ماهى هذه القضية

— انها قضيـة واضحة أيضاً فان أحـد اللصوص ولا أدرى ما اسمه متهم بسرقة يحاكمونه لاجلها وكل مافيه يدل على الشر فلو حكمت فى أمره حكمت عليه دون أن أسمع أقواله

— هل يمكن ياسيدى الدخول الى القاعه

— لا أظن فان الزحام شديد ومع ذلك فان الجلسة توقفت قليلا وخرج كثير من المتفرجين فاجتهد ان تجـد موضعاً حـين عودتهم الى المحاكمة

— من أين يدخلون

— من هذا الباب الكبير .

وعند ذلك تركه المحامي فوقف جان وقد تنهد تنهداً طويلا لوصوله قبل فوات الاوان وقد اختلط أمره فلم يعلم أيسر أم يحزن لهذا الاتفاق

وقد جعل يدنو من الناس المجتمعين ويصغى الى مايتحدثون به فسمعهم يتحدثون بقضية هذا اللص فيقولون أنه متهم بسرقة تفاح من بستان ولكن السرقة لم تثبت عليه كل الثبوت

ولكن الذى ثبت عليه كما يظهر هو أنه كان سجيناً في طولون وهذا الذي زاد في مشكلته

وقد فرغوا من استنطاقه ومن سماع أقوال الشهود ولم يبق الا مرافعات المحامي عنه والنائب العام والذي يظن أنهم سيحكمون عليه لامحالة

وكان أحد الحجاب واقفاً عند باب القاعة المؤدية الى قاعة الجلسات فدنا جان منه وسأله قائلا

متى يفتح هذا الباب

قال انه لايفتح

قال كيف ذلك ألا يفتحونه حين عودة الجلسة

قال ان الجلسة قد عادت ولكن الباب لايفتح

— لماذا

— لان القاعة غاصة بالناس

— الا يوجد مكان

— كلا ولذلك أقفلنا الباب

ثم قال له بعد سكوت قصير لايزال يوجد ثلاثة مواقع خالية وراء كرسي الرئيس ولكن هذه المواقع خاصة بالموظفين

فتركه جان وذهب فاستند الى الجدار وهو مطرق يفكر ثم أخذ دفتراً من جيبه فانتزع منه ورقة كتب عليها اسمه ووظيفته وعاد الى الحاجب فدفع الورقة اليه وقال له بلهجة السيادة خذ هذه الورقة الى الرئيس

فنظر الحاجب اليها وامتثل طائعاً فدخل الى القاعة

***

كان جان فالجان قد نال شهرة عظيمة باسم محافظ مدينة م . فان شهرته أخذت تذيع في المدن والقرى منذ سبعة أعوام فعمت أطراف البلاد

ولم تكن شهرته قاصرة على حسناته بل على معامله التي كان يستفيد من العمل بها والتجارة في أصنافها أكثر الناس

ثم انه لم يقتصر على هذه المعامل التي أنشأها في مقاطعته بل انه أعان كثيراً من المعامل الاخرى بأمواله كمعمل للقرميد في بولونيا وآخر للغزل وغيره لصنع الاقمشة فلم يبق أحد في تلك الجهات لم يسمع باسم الموسيو مدلين محافظ مدينة م .

وكان رئيس الجلسة من الذين اتصلت بهم شهرة هذا المحافظ فلما قرأ اسمه على الورقة التي أعطاه إياها الحاجب وسمع الحاجب يقول له ان هـذا السيد يريد حضور الجلسة أمر الحاجب ان يدخله في الحال

اما جان فقـد لبث واقفاً عند الباب وقفة الحزين الى أن جاءه الحاجب وقال له

هل يتفضل سيدي ويتبعني

ثم دفع اليه الورقة التي كان أعطاه إياها وكان الرئيس قد كتب عليها سطراً فقرأه وهو

ان رئيس محكمة الاستئناف يقـدم احترامه للموسـيو مدلين

وقد دعك هـذه الورقة بيـده كأنها حية لسعته ومشي في أثر الحاجب حتى أوصله الى غرفة فقال له

انك يا سيدي الآن في غرفة المداولة فلم يبق عليك إلا أن تفتح هذا الباب وتجلس وراء الرئيس في قاعة الجلسة

ثم تركه وانصرف

ولما أصبح جان وحده شعر بدنو الساعة الرهيبة فانه كان في تلك الغرفة الهـائلة التي يتداول فيها القضاة ويصـدرون أحكامهم الرهيبة

وقد وقف هناك حائرا مضطرباً وشعر بندم شديد لقدومه وجعل العرق يسيل من وجهه ويتساقط من شعره على صدغيه

ولقد هاله هذا الموقف حتى انه رفع يديه كمن تنبه الى أمر جديد وقال في نفسه

من الذي يكرهني على الدخول ومن الذي يمنعني عن الرجوع

وعند ذلك رجع بعنف وراء الباب الذي دخل منه ففتحه وخرج من غرفة المداولة الي رواق طويل ضيق فتنهد تنهداً طويلا والتفت حواليه ثم مشى مسرعاً كأنه كان يخشى أن يطاردوه

ثم وقف فجأة وكان السكون سائداً فشعر أن قواه خارت وعاد العرق الي الانصباب من وجهه

وهناك جعل يتأمله وكان قد صرف ليله ونهاره في التفكير حتى أجهد فلم يعد يسمع غير صوت داخلي يناديه ويقول له وا أسفاه

مر به ربع ساعة وهو على هذه الحال الى أن تنهد تنهداً أليماً وشعر أن قوة تدفعه الى قاعة الجلسة فعاد مرغما الي غرفة المداولة

وهناك فتح الباب بيد ترتجف ودخل الي قاعة الجلسة

***

وقد أقفل الباب ووقف ينظر فرأى القاعة غاصة بالناس وهم يلغطون تارة حتى لا تفهم أقوال المتحاكمين ويسكتون تارة حتى تسمع أصوات مجاري الانفاس

ثم رأى القضاة والمحلفين ثم رأى المحامين بملابسهم السوداء

ولم يتنبه أحد الى دخوله فان جميع الانظار محدقة الى رجل شيخ واقف بين جنديين وهو الرجل المتهم انه يدعى حاذفالجان

فلم يلبث جان ان نظر اليه حتى دهش اذ خيل له انه ينظر الى مرآته ولم يكن الشبه تاما بالوجه بل بالقوام والشعر والعينين والملابس التي كان يلبسها حين خروجه من سجن طولون

وكان الشبه كثيراً بالوجه أيضاً ولكن ظواهر الشيخوخة كانت بادية في وجه ذلك الرجل أكثر من ظهورها في وجه جان

وقد التفت الرئيس حين دخول جان وأيقن أن الداخل انما هو الموسيو مدلين فحياه تحية ودية وكذلك النائب العمومي اذ كان يعرفه فقد تعين مراراً في مدينة م

أما هو فقد كان مشتغلا بمنظر ذلك الرجل الذي كهربه فكان ينظر اليه نظرة النعجة إلى الذئب فاطبق عينيه وقال في نفسه يستحيل أن أفعل

ومما هاله وكاد يذهب بعقله انه ذكر بتلك القاعة مامر به حين حاكموه أول مرة فقد كانت الساعة نفسها و نظرات القضاة نفسها ووقفات الجنود نفسها ولم يكن هناك غير فرق يسير وهو انه كان يوجد فوق رأس الرئيس صليب خلافاً لليوم الذي حوكم فيه مما استدل به ان الله لم يحضر تلك الجلسة يوم حكم عليه فيها

وكان يوجد كرسي وراء الرئيس فجلس عليه خائر القوى وقد

ٍي قطعة من الكرتون على منضدة فستر بها وجهه بحيث بات
يرى الناس ولا يرونه

وقد بحث بين الجمهور عن جافرت فلم يجده

وكان المحامي عن المتهم قد أتم مرافعته وقد اتجهت الانظار
لى متهم واختلفت الافكار بشأنه فان المرافعة دامت ثلاث
ساعات والناس ينظرون الى هذا الرجل ولا يعلمون أهو أبله
فيشفقون عليه أم هو حاذق متباله فيتمنون له العقاب

ن هذا الرجل كان متشرداً وقد وجدوه في أحد الحقول
يحمل غصنا فيه تفاح كسر من تفاحة فمن عسى أن يكون هذا
لرجل الذى لم يكن يعرفه أحد

ان النيابة قد اتهمته بأمور شتى فقالت

انه لص خرج من سجن طولون بعد ان أقام فيه تسعة عشر
عاماً وبعد ان ارتكب كثيراً من الآثام

بل هو رجل شديد الخطر على ابناء البشر يدعي جان
فلجان والحكومة تبحث عنه من عهد بعيد فان تجدد فانه من ثمانية
أيام سرق غلاماً قروياً على قارعة الطريق دون ان يؤدبه سجن
نحو ربع قرن

وهو جرم سننظر في عقابه بعد النظر في هويته

وقد نظرنا في هويته وجئنا بالشهود وعليه كلما ذكرنا له
سمه بدأ يظهر الانذهال ثم يأتي بحركات واشارات مختلفة وينظر

الى السقف ويتكلم بعناء

ولكن كل عضلاته من رأسه الى قدمه كانت تنكر انه صاحب هذا الاسم

ثم ازما كان يبدو منه يدل على انه من البلهاء وهو يتظاهر دون شعور لهذه البلاهة على رجاء أن ينجو من العقاب

هذا ما كان يقوله النائب ولكن الناس والمحلفين كانوا منقسمين قسمين بشأنه

فكان بعضهم يعتقدون أنه أبله و بعضهم يريد أن يتباله بدهائه

وكان المحامى عنه رافع في قضيته ثلاث ساعات متوالية بملء الفصاحة فما قاله عن سرقة المفتاح انه لا يوجد من يشهد عليه أنه رآه يتسلق سور البستان ويكسر غصن التفاح

نعم انهم قبضوا عليه والمفتاح بيده فقالوا انهم قبضوا عليه متلبساً بالخيانة

والحقيقة ان هذه التهمة لم يقم عليها شاهد وانه وجد ذلك اللص ملقى على الارض فلتقطه فاين ما يدل على عكس ما يقول وباى رجل يثبتون قطعة من الشجرة

ولا شك أنه لا يوجد سارق تسلق السور وقطع الغصن ولكن ما الذى يثبت أن شام ماتيو كاسره الا يمكن أن يكون ذلك السارق رأى رقيباً حين قطع الغصن فالقاه الى الارض وأركنا الى الفرار

ثم رآه ذلك المنكود والتقطه

أما هويته وكونه من سجناء طولون فلم يستطع المحامي أن ينكر ذلك كل الانكار فقد ثبت أن المتهم أقام فى فافرول وإنه كان بستانيا وان شان ماتيو قد يكون أصله جان ماتيو

كل ذلك مرجح معقول لاسيا وأن اربعة شهود قالوا حين رأوه أنه جان فالجان بعينه

ولكن لنفترض انه هو جان فالجان أيمكن أن يكون ذلك برهاناً على أنه سارق التفاح

ولا شك أن المتهم قد أخطأ بانكار الهوية لأن الاعتراف بها أدعى الى رحمة القضاة

ولكن المحامى نصح المتهم كثيراً أن يعترف فكان ينكر كل الانكار لاعتقاده أن فى ذلك منجاة له

وهو خطأ عظيم منه ولكننا لو نظرنا الى بلاهته الظاهرة وإلى ما عاناه من الشقاء فى سجن أقام فيه أكثر أيام حياته وإلى الشقاء الذى لقيه خارج سجنه وكل ذلك مما يقتل العقول ويخمد الذكاء لهان الامر على القضاة فانه اذا أساء الدفاع عن نفسه اتخذ ذلك حجة للحكم عليه فى جريمة لم يرتكبها

وبعد أن دافع مليا على هـذا النمط التمس من المجلس ومن المحلفين أن ينظروا اليه بعين الرحمة وان يحكموا عليه إذا ثبتت

هويته وثبتت سرقة التفاح حكما عاديا بسيطاً وليس ذلك الحكم لشديد الهائل الذى يحكمون به على من يخرج من السجن ثم يعود الى ارتكاب الآثام التى سجن من أجلها .

فرد عليه النائب وكان شديد القسوة على المتهم شأن جميع أعضاء النيابة فى هذه الشؤون

وقد اثنى على المحامى لفصاحته ثم استعان بنفس كلامه على الرد عليه

فقال أن المحامي قد اعترف أن المتهم انما هو جان فالجان بعينه ولم يبق سبيل للبحث فى هويته فلنبحث الآن فى هذا الرجل ومن هو

انه وحش مفترس متشرد لص متسول ليس له وسيلة للارتزاق ألف الجرائم منذ نشأ حتى تعودها ولم تصلحه آداب السجون بدليل أنه لم يكد يخرج من سجنه حتى سرق ذلك القروى الصغير على قارعة الطريق

ثم وجدوه وعرق التفاح بيده فانكر السرقة وانكر تساق السور وانكر كل شيء حتى اسمه

ثم انه عدا عن الشهود الذين اثبتوا انه جان فالجان شهد الموسيو جافرت ففتش البوليس نفس الشهادة فكيف يصغى الى انكاره بعد هذا الثبوت

وبينما كان النائب يتكلم كان المتهم ينظر اليه نظرات المأخوذ

وقد فتح فمه واتسعت حدقتاه ويهز رأسه من حين الى حين كأنه يعترض على ما يسمعه من أقواله

وكان يقول أحياناً

لماذا لا تسألون المسيو بالوب

فيعترضه النائب ويخاطب المحلفين فيظهر لهم دهاء هذا الرجل وكيف انه يتباله على رجاء الخلاص

وبعد أن أفاض في مرافعته طلب معاقبته باشد درجات العقوبة وهي العود الى سجن طولون والبقاء فيه إلى آخر ايامه

فأجابه المحامي بما يوافق المقام ولكن أجاب جواباً ضعيفاً استدل منه الناس أن الرجل بات محكوما عليه لا محالة

***

وآن أوان انتهاء الجلسة فسأل الرئيس للمتهم السؤال العادي في هذه القضايا وهو

هل لك ما تزيده على قول المحامي

فجعل الرجل يعبث بقبعته كأنه لا يسمع مايقول الرئيس

فأعاد عليه الرئيس نفس السؤال فسمعه عند ذلك وظهر عليه كأنه فهم فانتبه كمن يستفيق من رقاده وجعل يجيل نظره بين الناس والجنود والمحلفين والقضاة ثم حدق نظره بالنائب العمومي وبدأ الكلام فقال

نعم لي ما أقوله وهو اني كنت حداداً أصنع العجلات في

ثم نظر إلى قبعته وحول نظره بعدذلك الىالسقف وسكت

فانتهره النائب العام فقال

أيها المتهم انكلم تجب بشيء عما سألك عنـه الرئيس .. ان اضطرابك يقضي عليك ولم يبق ريب انك لا تدعي شان ماتيو بل جان فالجان ثم لاريب انك سرقت التفاح بعد ان تساقت السور

وكان المتهم قد جلس فنهض عند ذلك وقال للنائب

انك شرير وهذا كل ما أريد قوله .، اني لم أسرق شيئاً وما أنا من الذين يأكلون كل يوم

وقد اتفق اني كنت قادماً من إحدى القرى فرأيت غصن تفاح ملقياً على الارض فالتقطته وأنا لا أعلم أنه سيقذف بي الى هذا الجحيم الذى أنا فيه

وأنا الآن في السجن منذ ثلاثة أشهر وكل ذلك لاني لقيت غصن تفاح على الارض

وفوق ذلك فانى لاأستطيع أن أقول شيئا فان الجميع ضدى وكلكم تقولون لى أجب

وماذا عساي أجيب فاني ماتعلمت في المدارس فأتكلم كما تتكلمون وكل ماأستطيع أن أجيبكم به هو اني لم أسرق وما أنا جان فالجان كما تتوهمون حتى اني لم أسمع هذا الاسم قبل الآن

وقد قلت لكم انى كنت حدادا عنـد بالوب وكنت في

فافرون واوفرن ولم أسرق واني أدعى الاب شان ماتيو فلماذا تزعجوني هذا الازعاج بأقوالكم التافهة

فالتفت النائب الى الرئيس وقال له

ان هذا الرجل لا ينفك عن التظاهر بالبلاهة فاذا أذنت فمر باحضار الشهود الذين جاؤا من سجن طولون وباحضار المسيو جافرت كي يقابلوا المتهم آخر مرة وينقضي هذا الاشكال

فأجاب الرئيس قائلا

ان المفتش جافرت شهد شهادته في بدء الجلسة وعاد الى بلده فأذنت له بعد استشارتك واستشارة المحامي عن المتهم

قال هو ذلك اذن فليتفضل حضرة الرئيس بتلاوة شهادة المفتش

فتلا الرئيس تلك الشهادة وخلاصتها

ان هذا الرجل لا يدعى شان ماتيو بل هو رجل كثير الشر شديد الخطر يدعى جان فالجان . وانهم لم يطلقوا سراحه بعد انتهاء مدته الا بأسف شديد . وانه أقام في سجن طولون تسعة عشر عاما . وانه حاول الفرار خمس مرات وانه سرق القروى جرفيه وسرق الاسقف المرحوم مونسنيور موريبل . وانه رآه مراراً في سجن طولون حين كان موظفاً فيه فهو يعرفه حق العرفان ولا سبيل الى الخطاء فيه

وكان الرئيس قد أمر باحضار الشهود قبل تلاوة هذه الشهادة

فحضروا وبدأ الرئيس بمحادثة أحدهم المدعو بريفيت وهو يبلغ نحو الستين من العمر فقال له

انه لايحق لك يابريفيت أن تقسم يميناً لانك محكوم عليك بعادة تهتك

ولكن لابد أن يكون باقياً في زاوية من قلبك شيء من العواطف الكريمة

وانى أسألك باسم هذه العواطف اذا كانت موجودة فيك أن تتمعن وتقول الحق فان الموقف خطير والمرء معرض في كل حين للخطأ

فانظر الى هـذا المتهم وقل لنا اذا كنت لا تزال تعتقد انه جان فالجان

فنظر بريفيت اليه وقال له

نعم ياسيدي اني أنا أول من فضح أمره ولا أزال أقول انه يدعى جان فالجان وانه دخل الى سجن طولون سنة ١٧٩٦ وخرج منه سنة ١٨١٥ وأنا خرجت بعده بسنة

ولا أنكر ان وجهه تغير قليلا ولكن هذا التغير لم يحدثه غير تقدمه في العمر

قال اجلس في موضعك ثم أمر الشاهد الثانى أن يقف وسأله نفس السؤال

فضحك الرجل وقال كيف لا أعرفه وقد قيدونا خمسة أعوام بقيد واحد

وسأل الشاهد الثالث فأجاب كما أجاب الاثنان

وعند ذلك نظر الرئيس الى المتهم وقال له

لقد سمعت ماقاله الشهود فماذا تقول

قال بارك الله فيهم فكلهم من أهل الصلاح .

قال كفى فانى مقفل الجلسة

وعند ذلك سمع الناس خارجاً من وراء الرئيس يقول

يابريفيت وياشنيلدان وياتوشبايل أنظروا الي

فاضطرب الناس لهذا الصوت ونظروا الى مصدره فروا رجلا واقفاً وراء الرئيس في المواضع الممتازة

وقد عرفه نحو عشرين رجلا من الحضور فصاحوا كلهم قائلين المسيو مدلين ؛

* *

وقد نظروا اليه فرأوه على أتم حالات السكينة فعجبوا كيف يصدر منه هذا الصوت الهائل وهو على هذه الحالة من السكون

أما جان فانه حين نادى الشهود بهذا الصوت قال لهم أنظروا الي أما عرفتموني

فذهل الثلاثة لما سمعوه واشاروا برؤوسهم أو انهم لم يعرفوه وحياه واحد منهم تحية عسكرية

فالتفت عند ذلك الى الاعضاء والى المحلفين وقال لهم بصوت رقيق

أسألك ياحضرة الرئيس ان تطلق سراح المتهم وان تأمر بالقبض علي فانا هو المتهم الذي تبحثون عنه وانا هو جان فالجان لا هذا

وقد سكت الجميع كأن على رؤوسهم الطير وحمل الرئيس والنائب ينظر بعضهم الى بعض ويتكلمون همساً

وكانت دلائل الحزن بادية على الرئيس فسأل قائلا ألا يوجد هنا طبيب

وقال النائب العام يخاطب المحلفين

أن هذا الحادث الغريب الذى لم يكن يخطر لاحد في بال قد أثر بنا و بكم تأثيراً لانحتاج الى بيانه

ثم التفت إلى الناس وقال

وأنتم أيها السادة أن معظمكم يعرفون المسيو مدلين فاذا كان يوجد بينكم طبيب فليتفضل بمساعدته

أما جان فانه قطع الحديث على النائب وقال له

اني أشكرك ياحضرة النائب ولكني لست بمجنون وماأنا في حاجة الى طبيب

انكم كنتم على وشك ارتكاب خطاء عظيم فاطلقوا الآن سراح هذا الرجل البرىء فانا هو بغيتكم وانا هو جان فالجان وانا وحدي الذى يعرف الحقيقة هنا ويقولها

وان ماأعمله الآن يعلمه الله ويقدره وهذا يكفيني

نعم انا هو جان فالجان وقد تنكرت بالاسم الذى عرفتموه واصبحت من كبار الاغنياء وصرت من الحكام واردت أن أعيش عيش الاشراف

ويظهر ان ذلك لم يتم لى ثم أنه يوجد كثير من الامور لا أستطيع قولها وستظهرها الايام

أما الآن فاعلموا اني سرقت الغلام القروى وسرقت الاسقف ولقد يقال اني كنت من أهل الشر والفساد ولكن الذنب لم يكن ذنبي فاصغوا الي يا أسيادي القضاة فان من كان منحطاً مثلي لا يحق له أن يعظ الهيأة ويرشدها ولكن اعلموا أن السجون توجد المسجونين فانى قبل سجني لم أكن من الاشقياء بل كنت عاملا مجتهداً شريفاً فصيرنى السجن لصاً شقياً

ثم لقيت الاسقف الذى سرقته فطهر قلبي بكرمه كما أفسده الناس بمظالمهم

وانى لا احب ان ازيد شيئاً على ماقلته فاقبضوا علي واطلقوا سراح هذا البرىء ولا تهزوا رؤوسكم فما انا مجنون كما تتوهموذ

واما انتم ايها الشهود فاذا كنتم لم تعرفونى فانا أعرفكم اتذكر يا بريفيت تلك الحمالات التى كنت تلبسها وهي منقوشة بما يشبه رقاع الشطرنج

وانت يا شانليدان ان في كتفك آثار حروق عميقة فانك نمت يوم علي بلاطة فرنحامية كى تمحوا الحروق الثلاثة المرسوم

بها وهى ت . ف . ب ولا تزال آثارها ظاهرة : أجب الست اقول الحق

قال نعم هو الحق ماتقوله

قال وأنت يا تومشبايل انه يوجد فوق ذراعك الايسر تاريخ مطبوع بحروف زرقاء وهو تاريخ سفر الامبراطور نابليون الى مدينة كان اي في أول اذار سنة ١٨١٥

ارفع قميصك كى يرى القضاة اني أقول الحق

فكشف عن ذراعه ودعاه الرئيس فقرأ ذلك التاريخ على ذراعه ونظر جان عند ذلك الى الرئيس فابتسم ابتسامة تدل على الفوز وعلى اليأس في حين واحد وقال له

أرأيتم الآن أنى لست مجنوناً واني حقيقة جان فالجان .

وقد كان لهذه الحادثة تأثير عظيم على جميع الحضور فلم يعد هناك لا محلفين ولا قضاة ولا متفرجين ولا محامين بل استحال الجميع إلى عين ناظرة وقلب خافق ونسى النائب أنه هناك للتحقيق والرئيس أنه للرئاسة ولم يأمر أحدمنهما بتوقيفه

ولما رأى جان ما كان من اضطرابهم قال لهيئة المحكمة

اني لا أريد ازعاجكم فوق ما أزعجتكم ومازلتم تأبون القبض عليّ فاني ذاهب إذ لديّ كثير من الاعمال لابد من اتمامها وان حضرة النائب يعلم من أنا وأين أقيم فله أن يقبض على حين يشاء

ثم برح تلك القاعة يمشي الهوينا حتى اذا وصل الى الباب وقف فقال للنائب

اني رهن أمرك يا سيدي

ثم التفت الى الحضور وقال لهم

انكم أيها السادة مشفقون علي كما أرى من وجوهكم أما أنا فأحسب نفسي بما فعلته جديراً بالغبطة على أني كنت أحب أن لا يكون شيء مما كان

ثم خرج من القاعة وأقفل بابها

وبعد ساعة اتفق القضاة والمحلفون على اطلاق سراحه شان ماتيو فخرج حائراً منذهلا وهو يحسب أن كل الناس أصبحوا مجانين

***

كانت فانتين قد قضت ليلة شديدة فلم تنم الا عند الصباح وكانت الراهبة جالسة بجانب سريرها تراقب سير الحمى ثم خرجت لبعض الشؤون وجعلت ترتب العقاقير وفيما هي على ذلك سمعت وقع خطوات خفيفة ثم وقفت بملء الاحترام وقالت

أهذا أنت يا سيدي المحافظ

فأجابها بصوت منخفض قائلا

كيف حال هذه المسكينة

قالت انها قضت ليلة كثيرة الارق شديدة الحمى ولكنها الآن تحسنت قليلا لانها نامت وهي تعتقد أنك سافرت لاحضار ابنتها غوسيت

— لقد أحسنت بانك لم تخدعي ظنونها

هو ذاك ولكن ما يكون منها الآن حين تستفيق فتراك ولا ترى ولدها

فوقف هنيهة يفكر ثم قال

سيلهمنا الله الى ما نقوله

وقد نظرت الراهبة عند ذلك اليه فذكرت فجاءة لما رأته وقالت له

ما ذا أصابك يا سيدى وكيف ان شعرك قد ابيض بجملته

— ماذا تقولين

— أقول ان شعرك أصبح كالحمامة بعد ان كان كالغراب

ثم أسرعت الي مرآة صغيرة كانت على منصدة فأعطته اياها فنظر فيها وقال

هو ذاك

وقد قال ذلك بلهجة تدل على عدم الاكتراث وانه يفكر بغير هذا الامر وقال لها

أيمكن أن أرى فانتين

— ألا يريد سيدي المحافظ أن يعيد لها بنتها غوسيت

— هذا لاريب فيه ولكن لايكون قبل يومين أو ثلاثة

— انها اذا لم ترك في هذه المدة تلبث على اعتقادها بانك سافرت لاحضار بنتها لانك لم تعد بعد ويسهل علينا أن ندعوها الى الصبر

وعند ما تحضر بنتها تعلم بالطبع ان سيدي المحافظ قد عاد معها فلا نكون مضطرين إلى الكذب

فأطرق جان هنيهة مفكراً ثم قال

كلا ايها الاخت لابد لي أن أراها لاني ربما أضطر الى العجلة

فلم تفقه الراهبة المراد من قوله « ربما » وقالت له

اذا كان ذلك فتفضل بالدخول يا سيدى

وقد دخل ولم تدخل الراهبة معه ففتحت فانتين عينيها حين دخوله وسألته قائلة وهي تتبسم —

أين غوسيت

وقد سألته هذا السؤال بملء الفرح والسكينة لوثوقها التام من انه عاد اليها بنتها ثم قالت له

لقد كنت أعلم أين أنت فان روحي قد تبعتك حيث كنت ورأيت المجد محيطاً بك كما يحيط آثار النور برؤوس الشهداء

ولكن قل لي أين هي غوسيت ولماذا لم تضعها في سريري فأراها حين صحوت

فأجابها متمتماً بكلمات لم تفهمها وكان الطبيب قد دخل في تلك اللحظة فأعان جان وقال لها

اطمأني يا ابنتي فان ابنتك هنا

فابرقت عيناها بنور عجيب أشرقت به وجهها وقالت له

بالله دعوني أراها

فقال لها الطبيب

لم يحن الوقت بعد يا ابنتي فانك لا تزالين محرومة قوى رأيتها الآن أثر بك منظرها تأثيراً يزيد بك الحمى ولا يدفع ذلك من شفائك

قالت ولكني شفيت أتم الشفاء

ثم نظرت الى جون وقالت له

ما بال هذا الطبيب الهمجي لا يفقه ما يقول . اني أريد أن أرى ابنتي فان هذا وحده لا يشفيني

قال أرأيت كيف أنك تضطربين لمجرد ذكرها فما يكون لو رأيتها . كلا اني أعارض الآن بادخالها اليك اذ لا يمكن ان تربيها بل يجب أن تعيشي لها ومتى حان الوقت فاني آتيك بها بنفسي

فاطرقت المنكودة برأسها وقالت

أسألك المعذرة ياسيدي الطبيب لما قلته فاني تراكمت الشقاء على في هذه الايام أضل صوابي فلم أعد أعلم ما أقول

نعم انك تخاف علي عاقبة التأثر وسأصبر قدر ما تشاء ولكني أقسم لك ان منظر بنتي لا يضر بي كما تتوهم فاني أراها منذ أمس ولم أفارقها لحظة

وثق ياسيدي اني سأكلمها بمرء السكينة اذا أحضرتها أليس من الطبيعي أن أرى بنتي بعد أن سافر سيدي المحافظ خصيصاً لاحضارها

انى لست غضبى كما ترى وانى واثقة من أنى سأكون سعيدة فقد كنت أرى كل ليلتى أشياء ناصعة البياض تحيط بى وتبتسم لي من كل صوب

وبعد فليأذن لي حضرة الطبيب أن أرى غوسيت متى شاء فاني لم أعد محرومة لاني شفيت بل اني شفيت أتم الشفاء وأنا أوهم الراهبات اني لا أزال مريضة لحملهن على الاسراع باحضار بنتي

ثم التفتت الى جان وقد بذلت جهدا عنيفا كي تحمله على الاعتقاد بأنها ساكنة مطمئنة وقالت له

أرجو أن لا تكون لقيت شيئاً من العناء برحلتك يا سيدي المحافظ فبأى لسان أشكرك لتحملك مشاق السفر من أجلي . ولكن قل لي كيف هي . ألعلها تعبت في الطريق . واأسفاه انها لا تعرف أني أمها وقد نسيتني دون ريب فان الاطفال سريعو النسيان . . أهي لابسة ملابس نظيفة . أكانت تلك التروية تحسن غذاءها أواه كم كنت ألقى من العذاب حين كنت أسأل نفسي هذه الاسئلة في أيام شقائي وقبل أن تنهضني يدك الكريمة . ألا يمكن ياسيدي أن أنظر اليها نظرة واحدة ثم ترجعونها . قل ياسيدي فانك السيد المطلق هنا . . نظرة واحدة . . أتريد

فأخذ جان بيدها وقال لها

ان ابنتك جميلة وهي على خير حال وستريها قريبا فطمئني ولا

تتكلمي . . انك أخرجت يدك من تحت الغطاء فادخليها فان البرد يؤذيك ويهيج بك السعال

وقد انصرف الطبيب ودخلت الراهبـة وعادت فانتين إلى الـكلام فقالت تكلم نفسها

اني أسمع صوتها يرن في اذني واطرباه ان السعادة تدابتسمت لي والعناية راقبتني عيونها فساعيش مع غوسيت في بيت صغير ويكون له حديقة تلعب بنتي فيها وتركض على العشب في مطاردة الحشرات الطائرة . . واحد . اثنان . ثلاثة . . ان لها من العمر الآن سبعة أعوام وبعد خمسة أعوام تصبح صبية

ثم جعلت تضحك ضحكا عالياً وبعد ذلك استوت جالسة في سريرها وقد اصفر وجهها ونظرت محدقة الى شيء ظهر لعينها في آخر الغرفة

فاضطرب جان وقال لها

ما ذا أصابك يا فانتين

فلم تجب بشيء ولـكنها أشارت بيدها الى جهة الباب

فالتفت جان فرأى جافرت مفتش البوليس

***

واليك ما حدث

عندما خرج جان من قاعة المحكمة كان الليل قد انتصف فعاد الى الفندق فوجد مركبة البريد قدتأهبت للسفر فركب فيها وعاد

الى بلده فكان أول مافعله أنه أرسل الرسالة التي كتبها الى لافيت الصراف ودخل الى المستشفى ليرى فانتين

على أنه ماكاد يبرح قاعة المحاكمة حتى ثاب النائب الى رشده فأخذ يظهر أسفه لجنون المحافظ ويقول أنه لا يعتقد بشيء مما جرى من تلك الامور الخفية التي ستظهرها الايام وطلب الحكم على شانماتيو لانه هو جان فالجان الحقيقي

غير أن طلبه لم يرق لاحد من الحضور واعترضه المحامي عن المتهم فقال انه بعد ظهور جان فالجان الحقيقي واعترافه علانية بما سمعه المحلفون والقضاة وتخطئته الشهود بالبراهين الداحضة لم يبق بد من تبرئة المتهم واطلاق سراحه

وقد انضم الرئيس الى المحامي وبعد هنيهة تداول المحلفون وقرروا براءة المتهم فاطلقوا سراحه في الحال

غير أنه كان لابد للنيابة من جان فالجان فلما برأوا شانماتيو علقوا بمدلين

وبعد انتهاء الجلسة خلا النائب بالرئيس وتداولا بشان مدلين فاتفقا على اصدار الامر بالقبض عليه فأرسلا هذا الامر مع رسول خاص الى مدينة م وعهدا الى المفتش جافرت بالقاء القبض على جان فالجان المنتحل اسم مدلين

وكان هذا الامر مكتوباً كما يأتي

«أمر الى المفتش جافرت أن يقبض على مدلين محافظ مدينة م. الذي اعترف امامنا أنه نفس جان فالجان»

فلما تلقى جافرت هذا الامر اضطرب اضطراباً شديداً ولكنه لم يقل كلمة ولم يتوقف لحظة عن تنفيذه فذهب من فوره يصحبه بعض الجنود الى منزل المحافظ فقيل له أنه في المستشفى فذهب مسرعاً اليه ودخل الى الغرفة التي بها فانتين وهناك وقف على عتبة الباب وقد حمل قبعته باحدى يديه وأدخل الاخرى في ثوبه

ولبث على ذلك نحو دقيقة دون أن ينتبه اليه أحد إلى أن رأته فانتين ودلت عليه مدلين

أما جافرت فانه حين رأى جان ينظر اليه انقلبت سحنته انقلاباً عظيما ولم يبق في وجهه ما يدل على أنه من أبناء البشر

وأما فانتين فانها لم تكد ترى وجهه على هذه الحالة حتى حدثها قلبها بوقوع مصاب أليم فغطت وجهها بيديها وقالت أنقذني يا سيدي مدلين

فوقف جان وقال لها

لا تخشي يا ابنتي فانه لم يأت من أجلك

ثم التفت الى جافرت وقال له

اني أعلم ما تريد

قال إذن اسرع

فنظرت فانتين الى ما حواليها فلم تجد غير الراهبة والمحافظ

ووجه جافرت الذي كان يشبه في ذلك الحين وجوه الابالسة

وعند ذلك رأت منظراً غريباً لم يتراءى لها مثله في أشد حالات هذيانها حتى قيل لها أن الارض تميد بها وانها انفتحت امامها لتبتلعها

ذلك أنها رأت جافرت قبض على عنق المحافظ ورأت المحافظ مطرقاً برأسه دون أن يجيب فصاحت قائلة

يا سيدي المحافظ

فضحك جافرت ضحكا هائلا وقال

لم يبق هنا سيدي المحافظ

أما جان فالجان فانه لم يحاول الافلات منه وقال له

جافرت ...

فلم يدعه يتم كلامه وقال له

لا تدعني جافرت بل أدعني ياسيدي المفتش

قال اني ياسيدي أريد أن أقول لك كلمة لا يسمعها سوانا

قال بل تكلم بصوت مرتفع فاني لا يكلموني بالهمس

— هذا رجاء أبسطه لديك

— لقد أمرتك أن تتكلم بصوت مرتفع

— ولكن يجب أن لا يسمعنا أحد

— ليس هذا من شأني

— اني استمهلك ثلاثة أيام لاحضر لهذه المنكودة بنتها وأدفع

في مقابل ذلك قدر ما تشاء ولك أن تصحبي اذا أردت

— بل أنك تستمهلني هذه المهلة لتتمكن في خلالها من الهرب كما هربت مراراً من سجن طولون

فارتعشت فانتين ارتعاشاً عنيفاً وجعلت تصيح قائلة

ابنتي . . ابنتي . . ردوا الي ابنتي . . أما هي هنا . اريد أن أرى غوسيت . مسيو مدلين . سيدي المحافظ

وضرب جافرت الارض برجله وقال

ألا تسكتين أيتها الشقية ويح لهذه البلاد التي تصبح فيها اللصوص حكاماً وتعالج بنات الهوى معالجات الملكات. ألم تسمعي ألم تري . أنه لا يوجد هنا محافظ بل رجل من أشقى عباد الله وشهم يدعى جان فالجان وهو هذا الاسير الذي اقبض عليه الآن

فاستوت فانتين واقفة في سريرها ونظرت الى جان فالجان ثم الى جافرت ثم الى الراهبة نظرات لاسبيل الى وصفها

ثم اصطكت أسنانها وبسطت يديها كأنها تلتمس شيئاً تستند اليه

ثم سقطت على الارض وقد فتح فمها وانقلب رأسها الى صدرها وانطفأ نور عينيها فانها اسلمت الروح

فقبض جان على يد جافرت التي يمسكه بها وفتحها كما يفتحون يد الطفل وقال له

لقد قتلت هذه المرأة

قال هلم بنا فاني ما جئت لاسمع هذه السفاسف وأسرع فان الجنود ينتظرون عند الباب أو تضطرني إلى أن أضع القيود في يديك

وكان يوجد في زاوية تلك الغرفة سرير قديم العهد من الحديد فأسرع اليه جان وأخذ أحد عواميده ونظر إلى جافرت فقال له

أنصحك ان لا تزعجني الآن

فزعر المفتش وتراجع إلى جهة الباب

أما جان فانه ركع بجانب فانتين الميتة وألقى رأسها الى الوسادة كما تفعل الأم مع طفلها

ثم أطبق عينيها وأخذ يدها فلثمها وعاد الى جافرت بعد أن ألقى العمود الى الارض فقال له

هلم بنا الآن الى حيث تشاء

*

وقد سار به جافرت الى السجن وفي ذلك اليوم اشتهرت الحادثة في المدينة وضواحيها

ويسوءنا أن نقول ان جميع هؤلاء الناس الذين كانوا يعيشون من فضل هذا الرجل نسوا فضله أتم النسيان وبعد ساعتين كانوا ينعتونه باللص

نعم انهم لم يكونوا يعلمون بعد حقيقة ما جرى في محكمة

راس فلم يكونوا يتحدثون في ذلك اليوم إلا باشاعات مختلفة لا تقرب في شيء من الحقيقة

ولم يأسف عليه غير نفر قليل من أهل المروءة بينهم تلك الراهبة التي كانت تعالج فانتين وخادمة منزله

ففي مساء ذلك اليوم كانت الخادمة جالسة في المنزل تبكي بدموع غزيرة والراهبة في المستشفى راكعة تصلي بجانب فانتين

وفيما هي على ذلك رأت الباب قد فتح ودخل منه جان فوقفت منذعرة وقالت

رباه ماذا أرى لقد حسبتك يا سيدي ....

فأتم كلمتها التي لم تكن تجسر على قولها وقال

في السجن .. نعم لقد كنت في السجن وقد كسرت حديد نافذته وألقيت بنفسي من علو شاهق وجئت الى منزلي فاذهبي وائتني بالراهبة سيمليس فانها دون شك بجانب تلك المنكودة تصلي

فأسرعت الخادمة وبعد هنيهة أقبلت الراهبة وهي مصفرة الوجه محمرة العينين

وكان جان قد كتب بضعة سطور على ورقة فدفعها الى الراهبة وقال لها

أرجو أن تعطي هذه الورقة الى الكاهن. اقرأيها

فأخذتها الراهبة وقرأت ما يأتي

إني ألتمس من سيدي الكاهن أن يتولى بيع كل ما في منزلي،

فينفق منه على قضيتي وعلى دفن فانتين ويعطي ما بقي للفقراء

فقالت له الراهبة ألا يريد سيدي أن ينظر الى تلك المنكودة النظرة الاخيرة

قال كلا فانهم يطاردونني ولا أحب أن يدخلوا الى غرفتها وأنا فيها

وقبل ان يتم جملته سمعت أصوات الجنود على السلم وصوت الخادمة تقول لهم

اقسم بالله انه لم يأت أحد الى المنزل واني لم أفارق هذا الباب

فأجابها صوت يقول

ولكن النور في الغرفة

فعرف جان ان الصوت صوت جافرت وأطفأ الشمعة

أما الراهبة فانها ركعت تصلي وفتح الباب عند ذلك فظهر منه جافرت ورأى الراهبة تصلي

أما الراهبة فانها لم تلتفت اليه ولبثت عاكفة على صلاتها

ولابد لنا هنا من القول ان جافرت كان شديد التمسك بالدين

فكان أول ما خطر له أن يرجع كي لا يزعجها في صلاتها

ولكن الواجب كان يقضي عليه بالدخول والتفتيش على الهارب فاختار الوسط بين هذين الامرين وسأل الراهبة قائلا

هل أنت وحدك في هذه الغرفة

فنظرت الراهبة اليه وقالت نعم

قال أرجوك أن تعذريني اذا ألححت فان الواجب يقضي علي بالالحاح ان هذا الرجل الذي نبحث عنه وهو جان فالجان قد هرب ألم تريه

قالت كلا

وقد كذبت هذه الراهبة مرتين في لحظة لانقاذ جان وهي لم تكذب قبل ذلك في حياتها

أما جفرت فانه وثق من كلامها فانحنى أمامها بملء الاحترام وانصرف

وبعد ساعة كان رجل يسير متلصصاً بين الاشجار الى جهة باريس تخفيه الظلمات وكان هذا الرجل جان فالجان

وأما الكاهن فقد باع كل ما كان في منزل جان فدفن فانتين حسب وصيته واحتفظ بالباقي ليفرقه على الفقراء

***

لم يكن في ذلك الوقت جرائد لنشر أحكام المحاكم وأخبارها بل كان يوجد جرائد سيارة عمومية واليك ما قرأناه في جريدة «الراية البيضاء» بتاريخ ٢٥ تموز (يوليو) سنة ١٨٢٣

« لقد حدثت في محكمة اراس التابعة من أعمال مقاطعة بادي كاليه حادثة تستحق الذكر لغرابتها

ذلك أن رجلا يدعى مداين أنشأ في تلك المقاطعة معامل لصنع الكهرباء السوداء والخرز فربح أرباحاً عظيمة وأفادت تلك المقاطعة

فائدة تذكر «حتى أن الحكومة عينته محافظاً اعترافاً بجليل خدمته

« وقد اكتشف البوليس أن هذا الرجل الذي كان يحترمه
« الجميع انما كان لصاً سجيناً في طولون وأنه يدعى جان فالجان

« ويظهر أنه توفق قبل أن يقبضوا عليه إلى أخذ أمواله التي
« كان يودعها في مصرف لافيت وهي تبلغ نحو ستمائة ألف
« فرنك كسبها من تجارته أشرف كسب

« ولكنهم لا يعلمون أين خبأها بعد أن قبضوا عليه وأعادوه
« الى سجن طولون »

ونشرت جريدة باريس في التاريخ نفسه ما يأتي

« ان سجينا قديماً يدعى جان فالجان حوكم أخيراً في محكمة
« الاستئناف بحادثة لتستلفت الانظار

« ان هذا الشقي تمكن من مخادعة البوليس فغير اسمه ونجح
« فعين محافظاً وأنشأ تجارة واسعة ففاز فوزاً باهراً وجمع ثروة
« عظيمة الى أن افتضح أمره وقبض عليه

« وكان له ربيبة من بنات الهوى ماتت يوم قبضوا عليه

« ثم تمكن هـذا الشقي من الفرار بكسره الحديد ولكن
« البوليس تمكن من القبض عليه بعد أربعة أيام في باريس وهو
« يصعد الى مركبة من تلك المركبات التي تسافر من العاصمة الى
« مونتفرميل

« ويقال أنه استفاد من حريته في باريس فاسترجع أمواله

« التي كانت مودعة في أحد المصارف الكبيرة هنا وهى تبلغ
«سبعمائة الف فرنك أو تزيد

« وقد تمكن من اخفاء هذه الاموال فلم يهتد اليها أحد
« وحوكم في محكمة فار لاتهامه بسرقة بعد اشهار السلاح منذ
« ثمانية أعوام فأبى أن يدافع عن نفسه وثبت بهمة رجال البوليس
« أن هذا الشقى كان زعيم عصابة لصوص منتشرة في الجنوب
« فحكم عليه بالاعدام

« ومن غريب أمره أنه أبى أن يدافع عن نفسه وأبى تمييز
« الحكم الرهيب الذي صدر عليه

« غير أن الملك رحمه فاستبدل حكم الاعدام بالأشغال الشاقة
« المؤبدة وأرسل في الحال الى سجن طولون »

وهنا لابد لنا من القول أن جميع الذي توقعه جان فالجان
قبل أن يفضح نفسه قد تحقق، لأن معامله أقفلت والعمال تفرقوا
فبرح بعضهم البلاد واعتزل غيرهم المهنة فان لم يوجد أحد سقوطه
من يحسن ادارة تلك المعامل فاختل نظامها ولم يمض زمن قصير
حتى أصيبت بالافلاس

***

ويسمح لنا القراء قبل التوغل في الحديث أن نبسط لهم حادثة
جرت في مونتفرميل

وذلك أن أهل هذه المدينة كانوا يعتقدون بينهم

أن الشيطان قد اختار فى عهد سابق غابة مدينتهم لتخبئة كنوزه فيها

وكان العجائز يثبتن أنه يظهر أحياناً بعد غياب الشمس فى الغابة وهو مثل سائر الناس ويلبس ملابسهم ولا يختلف عنهم الا أن له قرنين يبرزان من صدغيه وهو أبداً منهمك فى حفر هوة

وكان من معتقدهم أن من يراه ويكلمه يموت فى مدة أسبوع وان من يراقبه دون أن يكلمه ثم يأخذ كنوزه بعد انصرافه يموت فى مدة شهر وان من يراه فلا يكلمه ولا يراقبه بل يركن الى الفرار يموت فى مدة عام

وكل هذه الشروط غير محمودة غير أن الشرط الثانى أفضلها فان المرء يموت فيها بعد شهر ولكنه يتمتع بالكنوز

فبعد ان قبضوا على جان فالجان وقد اتصل برجال البوليس أنهم رأوه قبل القبض عليه يرود حول قرية مونتفرميل لاحظوا أن رجلا يدعى بولاتريل وهو من الذين سجنوا فى طولون كان لا يفارق الغابة فتنبه رجال البوليس له فلما علموا أنه من المتشردين عينوه من العمال الذين يشتغلون في اصلاح الطرق

أما أهل القرية فقد علموا أن هذا الرجل كان يشتغل فى الطرق الى المساء فيأخذ آلة للحفر ويدخل الى الغابة

وقد ساد الاعتقاد بينهم أنه رأى الشيطان وأخذ يبحث في الغابة عن الكنوز

ولكن بولاتريل انقطع فجأة عن الذهاب الى الغابة وانقطع اهل القرية عن المباحثة فى شأنه ما خلا اثنين منهم كانا يتوقان الى معرفة سر الرجل وما كان مراده من الحفر فى الغابة

وهذان الرجلان أحدهما معلم فى مدرسة والآخر يدعى تنارديه وهو زوج تلك القروية التى أودعت فانتين عندها ابنتها غوسيت

وقد كانا يتحدثان يوماً فى هـذا الشأن فاكد معلم المدرسة لتنارديه أن الحكومة لابد ان تدقق يوماً فى امر هذا الرجل وتفحص عن سبب اشتغاله فى الغابة فاذا انكر عذبته بالمياه العذاب المعروف الى ان يقر فلماذا لانحمله نحن عن الاقرار بالخمر

فاستصوب تنارديه رأيه وفى اليوم التالى دعوه الى معاقرة المدام وما زالا يميلان عليه بالشراب حتى توهما أنهما عرفا شيئاً من دخائل سره

وبعد يومين رأى بولاتريل وهو ذاهب الى عمله فى الصباح آلة للحفر مخبوءة بين الادغال فحسب انها آلة احد العمال ولم يكترث لها

ولكن فى مساء ذلك اليوم نفسه كان واقفاً وراء شجرة كبيرة تخفيه عن العيون فرأى رجلا يسير الى أبعد مكان فى الغابة وهو غريب عن تلك القرية فعرفه وأبى ان يذكر اسمه

وكان هذا الرجل يحمل صندوقاً صغيراً فلم يخطر له أن يقتفى أثره الا بعد هنيهة أى بعد ان فات الاوان لتواريه عنه

غير أنه ارتأى أن يكمن هناك لهذ الرجل فرآه من بعد ساعتين

عائداً ولكنه لم يكن يحمل صندوقاً هذه المرة بل آلة للحفر

فلم يجسر أن يتعرض له لانه كان يعلم أنه من المشهورين بقوتهم البدنية وفوق ذلك فقد كان مسلحاً بآلة الحفر

وفى صباح اليوم التالى بحث بحثاً دقيقاً فى جميع الغابة فلم يجد اثراً للحفر

ولكنه كان واثقاً ان الصندوق الصغير دفن فى الغابة وانه لا محالة يحتوى على أموال

***

فى اواخر شهر تشرين اول (اكتوبر) من هذه السنة نفسها أى سنة ١٨٢٣ رأى اهالى طولون سفينة حربية داخلة الى المينا. تلجأ اليها لهياج الأنواء

وكانت هذه السفينة تدعى اوريون وهى من اسطول البحر المتوسط فحيت الثكنة باطلاق احد عشر مدفعاً واجابتها الثكنة بمثل تحيتها

وقد حسبوا ان ما يطلقه العالم المتمدن كل يوم فى مثل هذا السبيل يبلغ مئة وخمسين الف طلق مدفع لا فائدة منها فى شىء وان كل طلق ثمنه ستة فرنكات فيكون مجموع ما تنفقه الحكومات على هذه السفاسف ثلاثمائة مليون فرنك بينما الفقراء يموتون فى ظل راياتها من الجوع

وكانت هذه السفينة فى حاجة الى الاصلاح فرست امام

الترسانة وهرع الناس يتفرجون عليها لفخامتها ولقربها من البر

وبينما كان الناس فى صباح يوم يتفرجون عليها والبحرة منهمكون فى شد الشراعات حدث حادث وجفت له قلوبهم وذلك ان أحد النوتية فقد توازنه وسقط

وقد صاح صيحة عظيمة نبهت اليه أنظار الناس فرأوه يسقط ويداه منبسطتان الى الامام

وقد علقت إحدى يديه في البدء وهو يسقط بحبل كان البحارة يمشون عليه ثم أمسك بيده الثانية فكان يتمرجح فى هذا الحبل كالحجر في المقلاع

وقد رآه البحارة بجملتهم ولكن لم يوجد بينهم من يجسر على مساعدته لشدة الخطر فانهم جميعهم كانوا صيادين دخلوا حديثاً فى الخدمة العمومية

الى أن تعب المنكود وشعر أنه لم يعد يطيق الثبات فى موقفه فان يديه كانتا معلقتين فى الحبل وتحته الاعماق وكل جهد يبذله فى سبيل التسلق كان يزيد ارتجاج الحبل ويضعف قوته ويبعده عن الغاية بحيث كان الجميع يتوقعون فى كل لحظة أن يترك الحبل ويسقط الى الاعماق

وفيما الناس على ذلك وقد ذابت قلوبهم من الخوف عليه رأوا رجلا يتسلق الصارى بخفة النمور

فكان لابساً قبعة خضراء وثوباً أحمر وهي ملابس المحكوم عليهم بالسجن المؤبد

فلما بلغ إلى أعلى الصارى أخذ الهواء قبعته فانكشف رأسه عن شعر ناصع البياض

وكان هذا الرجل حين رأى الخطر المحدق بالنوتى وثب الى السفينة واستأذن الضابط بانقاذه فاشار اليه اشارة تدل على القبول فأخذ مطرقة فكسر بها القيد الذي كان في رجله ثم أخذ حبلا طويلا وصعد الى حبال الصوارى فلم تكن غير لحظة حتى وصل الى عارضة الصارى

فتوقف هنيهة يفحص الحالة كان النوتى يتمرجح أو يمرجحه الهواء وهو معلق بذلك الحبل الرفيع معرض في كل لحظة للسقوط والناس محدقون به وبعضهم أطبقوا عيونهم من الخوف

الى أن رأوا ذلك السجين قد مشي على العارضة الخشبية فتنهدوا تنهد الارتياح ورأوه قد احتاز تلك العارضة ركضاً حتى بلغ الى طرفها فربط به ذلك الحبل الذي جاء به من السفينة وأدلى طرفه الآخر ثم أمسك بيديه الحبل وجعل ينزل عليه

وقد زاد اضطراب الناس فانهم بدلا من أن يروا رجلاً معرضاً للسقوط الى الاعماق اصبحوا يرون اثنين فكانا مثلهما مثل عنكبوتة تحمل ذبابة ولكن الفرق بينهما ان العنكبوتة تحمل الموت وهذا السجين كان يحمل الحياة

وقد أحدقت بهما الانظار كالنطاق وخيم السكوت عليهم حتى أوشكوا ان يسمع نبض قلوبهم

الى أن وصل السجين الى النوتى ولا يزال الحبل الذى نزل عليه طويلا فوجده على آخر رمق

وعند ذلك أمسك الحبل بأسنانه ولف طرفه المتدلي على خصر النوتى فربطه به وعاد الى التسلق والنوتى معاق به الى أن وصل الى العارضة الخشبية وأمن كل خطر

فصفق الحاضرون وكانوا مئات من الناس تصفيقاً كدوى الرعد وجعلوا يصيحون ملتمسين العفو عن السجين

أما السجين فانه بعد ان نزل النوتى الى السفينة أراد هو أن يعجل بالنزول فجعل يركض ركضاً على العارضة والعيون تتبعه

ثم رأوا فجأة أنه تمايل كمن أصيب بدوار ثم صاحوا صيحة هائلة إذ رأوا ذلك السجين المنكود قد سقط الى البحر

وكان خطر السقوط عظيما اذ كان يوجد دارعة راسية بجانب السفينة التى سقط منها

ولكنه سقط بينهما فاسرع أربعة من البحارة فنزلوا إلى المياه بقارب فبحثوا عنه البحث الدقيق دون أن يجدوه ولبثوا في مباحثهم الى المساء فلم يقفوا له على أثر ولم يظفروا بجثته

وفي اليوم التالى نشرت جريدة طولون ما يأتي

في ١٧ تشرين ثاني سنة ١٨٢٣ سقط أحد المسجونين الى البحر بعد ان أنقذ من السقوط نوتياً من بحارة الدارعة أوريون فلم يجدوا جثته والمرجح انه دخل تحت الترسخانة .

أما هذا الرجل فقد كانت نمرته ٩٤٣٠ وهو يدعى جان فالجان

****

ن قرية مونتفرميل قرية جميلة لم يكن يعيبها غير عدم وجود الماء فيها فكانوا يأتون بالماء اليها من نبع قرب الغابة يبعد عنها ربع ساعة

وكان في تلك القرية فندق يدعونه فندق تنارديه وهي تلك العائلة القروية التي كانت تقيم عندها غوسيت ابنة فانتين

وكانت هذه العائلة تستخدم هذه الفتاة بل هذه الطفلة لغرضين أحدهما ابتزاز المال من أمها والثاني الاستفادة من خدمتها في الفندق فتغني عن خادمة كبيرة

ولم يكن يروع تلك الطفلة مثل ارسالها الى النبع في الليل لجلب المياه الى الفندق

ففي ليلة عيد الميلاد من سنة ١٨٢٣ كان جماعة من الحوذيين جالسين حول مائدة شراب في فندق تنارديه يسكرون ويدخنون ويتحدثون بما يتعلق بمهنتهم

وكانت غوسيت جالسة حسب عادتها تحت مائدة المطبخ قرب

المستوقد وهي ممزقة الملابس حافية القدمين تشتغل على نور لهب النار بحيا كات كلسات من الصوف بصناره

وهى تسمع ضحكا عاليا من الغرفة المجاورة فتنقطع عن العمل مصغية اذ تعلم ان هذا الضحك من ايبونين وازكا وهما بنتا تناردييه فتمتعض ليقينها انهما تلعبان وهي لا تستطيع أن تلعب معهما فان امرأة تناردييه كانت شديدة القسوة عليها وقد ناطت بها جميع أشغال الفندق من غسل وكناسة وتنظيف وجلب الماء الى غير ذلك وهى لم تتجاوز ثمانية أعوام من العمر

وفيما هى على ذلك قدم الى الفندق أربعة مسافرين فظهرت علائم الهم على وجهها الناحل الصغير لأن الليل كان قد أرخى سدوله وخافت أن يرسلوها فى طلب الماء

غير أن الذى طمأنها قليلا انهم لا يشربون غير الخمر فى هذا الفندق والماء موجود فى الغرف فقد ملأت الاواني في النهار

ثم شعرت أن قلبها يخفق خفوق أجنحة الطائر لأنها سمعت أحد المسافرين يقول

انكم لم تسقوا جوادي

فأجابته امرأة تناردييه قائلة بل سقيناه

قال لقد قلت لك أيتها المرأة انه لم يشرب

فأسرعت غوسيت الى الخروج من تحت المائدة وقالت له

بل انه شرب ياسيدي وأنا الذى سقيته بيدى فشرب كل ما في الاناء

وكانت غوسيت كاذبة وانما كذبت لخوفها أن يرسلوها فى هذه الليلة الحالكة الظلام الى النبع

أما الرجل فانه غضب وقال

انه جوادي وأنا أعرف طباعه فانه لم يشرب فكفى واسقوه

فرجعت غوسيت الى تحت المائدة وقالت امرأة تنارديه

لقد أصبت ياسيدي وسنسقيه .

ثم التفتت الى ماحواليها باحثة عن غوسيت فلم تجدها فنادتها وأمرتها أن تسقى الجواد

فقالت لها لايوجد ماء ياسيدتي

ففتحت لها الباب المؤدى الى الشارع وقالت لها

ألا تعرفين أيتها القبيحة موضع النبع اذهبي بالاناء واملأيه

ثم فتحت درجا فأخرجت منه فرنكا فأعطتها اياه وقالت لها

اشتري لنا وانت عائدة خبزا بنصف فرنك وهاتي الباقي

فأخذت المنكودة اناء الماء وخرجت فى ذلك الظلام وهى تنتفض من البرد والخوف

***

كان يوجد سوق فى جوار الفندق فتحت أبواب مخازنه في تلك الليلة بسبب عيد الميلاد وبسط أصحابها بضائعهم المختلفة

وبينهم مخزن يبيع كل مايروق للصغار

وقد مرت به غوسيت فلم يسعها الا الوقوف عند بابه والتفرج على اللعب التي كانت تدهش قلبها الصغير وتبهر عينيها

ثم تنهدت تنهد قنوط ومشت الى تلك الغابة الموجود فيها النبع وهي ترى الاشجار تحسبها أشباحا لشدة خوفها فتذرف الدموع السخينة وتود لو لم تخلق

حتى وصلت الى النبع وملأت الاناء وعادت به وهي تكاد تسقط به لثقله فجعلت تتنهد مستغيثة بالله وتقول

يارباه

وعند ذلك شعرت ان الاناء لم يعد له ثقل فان يدا أمسكت بالماره الحديدي وتولت عنها حمل ذلك الثقل

فرفعت نظرها فرأت رجلا طويل القامة عريض الكتفين يمشي بجانبها في ذلك الظلام المخيف

وكان هذا الرجل أتى من ورائها دون أن تشعر بوقع خطواته لما كانت تجده من العناء في حمل الماء وباغتها بمساعدتها على حمل الاناء فلم تخف منه بل شعرت بارتياح لهذه المباغتة فلا ندري كيف انها لم تخف ومن أين جاءها هذا الشعور بالارتياح

***

بعد ظهر ذلك اليوم نفسه كان رجل يتجول في الاماكن المقفرة في باريس يبحث عن غرفة يستأجرها للاقامة فيها

الى أن وقع اختياره على مكان في سانت مرسو وستري بعد هنيهة انه استأجر غرفة في ذلك الشارع المقفر

وكانت ملابس هذا الرجل تدل على انه من المتسولين وأبناء السبيل وان عمره يبلغ ستين عاماً ولكن له همة الفتيان ونشاطهم

وكان يحمل بيده اليسرى صرة مربوطة أي منديل ويتوكأ بيمينه على عصا متينة كثيرة العقد

أما هذا الشارع فقد كان يندر مرور الناس به ومع ذلك فقد كان يجتنب لقاءهم كل الاجتناب

وكان لويس الثامن عشر في ذلك العهد يسير في كل يوم متنزهاً الى شوازي لردا ويعود فيقف الناس على الارصفة حين مروره

أما هذا الرجل فكان يجهل عادة الملك ولا يعلم ساعة عودته ومروره بذلك الشارع

وقد بوغت بمرور تلك المركبة الملكية يخفرها الحراس واسرع الى الوقوف وراء شجرة من أشجار الطريق

وكان الدوق دي هافريه وهو يومئذ رئيس الحراس جالساً أمام الملك في مركبته فرأى ذلك الرجل وقال للملك

هوذا رجل لم يعجبني شكله

وقد رآه رجال البوليس أيضاً الذين كانوا يمهدون السبيل لمرور المركبة الملكية فرابهم أمره وصدر الامر الى واحد منهم بمراقبته

أما الرجل فانه تمكن من خديعة البوليس والاختفاء عنه فلم يستطع مراقبته كما كان يريد

وما زال الرجل يسير الي أن أدركه الظلام فرأى مركبة من تلك المركبات التي تسير الى القرى في جوار باريس

فاستوقف سائقها وسأله الى أين أنت ذاهب

قال الى مونتفر ميل

قال أيوجد مكان لي

قال يوجد مكان في جانبي

فنقده الاجرة وسار في مركبتــه فلما وصلت الى أول محطة قبل القرية ودع السائق ووثب من المركبة فذهب ماشياً الى أن وصل الى الغابة المجاورة لقرية مونتفر ميل

وهناك دخل اليهــا وجعل يمشي مشياً بطيئاً بين أشجارها ويراقبها كانه يريد السير في طريق سرية لايعرفها سواه

وما زال على ذلك حتى بلغ الى مكان فيه كثير من الحجارة الضخمة فوقف عنده

وهناك شجرة ضخمة ذهب اليهــا وكان يقابلها شجرة من الكستناء طوقت بالزنك فلما وجدها جعل يفتقد تراب الارض عنها كي يعلم اذا كان نبش

فلما علم ما أراد أن يعلمه خرج من الغابة ولقي غوسيت وهي تتألم من ثقل اناء الماء فاعانها على حمله كما تقدم

ولقد تقدم لنا القول أن غوسيت لم تخف هذا الرجل لاسيما حين أخذ يكلمها فقد قال لها بصوت رقيق حنون

'ن حملك ثقيل عليك يا ابنتي كما أري

قالت نعم يا سيدي

— اتركي الاناء فأحمله عنك

فتركته له فشعر بثقله وتألم لألمها فقال لها

كم لك يا ابنتي من العمر

— ثمانية أعوام يا سيدي

—أأنت قادمة بهذا الاناء من مكان بعيد

— من النبع الكائن في الغابة

— وهل أنت ذاهبة الى مكان بعيد

— الى مسافة ربع ساعة

—أليس لك أم

— لا أعلم فان جميع الصغار لهم أمهات أما أنا فلا أم لي

— ماذا تدعين

— غوسيت

فشعر الرجل كأنه أصيب باهتزاز كهربائي وسكت هنيهة مطرقاً مفكراً ثم سألها قائلا

—أين تقيمين يا ابنتي

— في مونتفرميل أتعرفها

— أأنت ذاهبة اليها

— نعم يا سيدي

— من أرسلك في هذه الساعة الى الغابة في طلب الماء

— مدام تناردييه

— ماذا تصنع هذه السيدة

— انها صاحبة الفندق المعروف في القرية

— حسناً فسأبيت فيه هذه الليلة فاذهبي بي اليه

— اننا ذاهبان

— ألا يوجد خادمة عند مدام تناردييه

— كلا يا سيدى

— أأنت وحدك هناك

— اني وحدي للخدمة ولكن يوجد بنتان صغيرتان

— من هما هاتان البنتان

— بنتا تناردييه

— ماذا تصنعان

— انهما تلعبان وعندهما كثير من اللعب

— أتلعبان طول النهار

— نعم

— وأنت

— أنا أشتغل كل النهار وقد يأذنون لى أحياناً أن ألعب بعد انتهاء شغلى

— بماذا تلعبين

— ان البنتين لا تؤذناق لى أن ألعب معهما وليس عندى من اللعب غير سيف صغير من الرصاص ويبلغ طوله الاصبع فألعب به

— ولكنه لا يقطع

— بل انه يقطع رؤوس الذباب

وقد وصلا عند ذلك الى القرية ورأى الرجل المخازن مفتوحة والمصابيح متقدة والبضائع مبسوطة فقال

ما هذا ألعله يوجد معرض الليلة

قالت بل هي ليلة عيد الميلاد

حتى اذا دنوا من الفندق لمست غوسيت يده فقال لها ماذا تريدين يا ابنتي

قالت لقد قربنا من الفندق فاعطني الاناء

— لماذا

— لان مدام تناردييه تضربني اذا رأتك تحمله عني

فأعطاها الاناء وبعد هنيهة كان عند باب الفندق

***

أما غوسيت فانها لم تتمالك عن الوقوف لحظة والنظر الى تلك

الدمية الكبيرة التي كانت معروضة في مخزن اللعب الكائن عند باب الفندق ..ثم طرقت الباب

فصاحت به صاحبة الفندق من الداخل قائلة أهذا أنت أيتها الشقية فما سبب هذا الغياب الطويل

فأجابتها غوسيت قائلة

— هو ذا سيد يريد المبيت في الفندق

فلطفت صوتها وسألتها قائلة

أين هو هذا السيد

فرفع الرجل قبعته وقال أنا هو يا سيدتي

وقد تأملت ملابسه الدالة على أنه من فقراء القوم ودعته الى الدخول فلما دخل عادت الى التأمل بملابسه واستشارت زوجها بهز الرأس وتقطيب الحاجبين وغمز العين فأجابها زوجها باشارة مفادها ما عسانا نرجو من مثل هذا الرجل

وعند ذلك دخلت هنيهة الى احدى الغرف وعادت فقالت له

يعز عليّ اخبارك أنه لا يوجد محل تمام فيه

قال لا بأس اني أبيت أين تشائين بل أبيت في الاصطبل وأعطيك أجرة المبيت في غرفة

قالت ان أجرة الغرفة فرنكان

قال وأنا أنقدك فرنكين

فقال أحد الحوذيين لزوج المرأة همساً ولكن الاجرة عندكم فرنك فكيف طلبت اليه فرنكين

قال لك كي لا يعود الينا حرصاً على شهرة فندقنا

أما الرجل فانه وضع صرته وعصاه على كرسى وجلس على كرسى آخر فجاؤه بمائدة وزجاجة من الخمر

فصب قليلا في كأسه وجعل ينظر إلى غوسيت نظرة الفاحص هو جد لبون عظيما بينها و بين أمها إذ كانت قبيحة هزيلة ولعل قبحها من هزالها ولكنه كان يشعر بحنو عليها زاده ما كان يراه من عنائها في الأعمال وهى لا تتجاوز ثمانية أعوام

أما امرأة تناردييه فانها ما لبثت ان عادت فنادت غوسيت وقالت لها

أين الخبز الذى أمرتك أن تشتريه

فارتعشت الصغيرة وقالت لقد وجدت الفرن مقفلا ياسيدتي

قالت لقد كان يجب أن تقرعي بابه

قالت لقد فعلت فلم يفتح

قالت سأعرف غداً إذا كان ماتقولين أكيداً فهاتي الفرنك الذى أعطيتك اياه

فمدت غوسيت يدها إلى جيبها وأرجعتها فارغة فبحثت في جيبها الآخر فلم تجد شيئاً فاصفر وجهها وتلعثم لسانها من الرعب فلم تعلم ما تقول

فصاحت بها المرأة قائلة

ويحك هل أضعته أم انك تحاولين سرقته

ثم مدت يدها إلى الجدار تحاول أخذ مطرقة معلقة فيه فهلع قلبها من الخوف وصاحت قائلة

رحماك ياسيدتي إني لا أضيع شيئاً بعد الآن

فاخذت المطرقة وحاولت أن تضربها بها ولكن الرجل أوقفها بقوله : لاتفعلي ياسيدتي فقد رأيت منذ هنيهة قطعة من النقود سقطت من جيبها وتدحرجت إلى جهة الباب

ثم قام فانحنى في تلك الجهة التي ذكرها وأخرج فرنكا من جيبه خفية فبحث قليلا وعاد فقال

هو ذا الفرنك قد وجدته

فأخذته المرأة وهي تعلم يقينا أنه خرج من جيب الرجل ولكنها لم تبال وسألته قائلة

ألا تريد أن تتعشى

فلم يجبها لانه كان قد استرسل الى التفكير

وعند ذلك دخلت بنتاها الصغيرتان فهشت لهما وشغلت بهما عنه فجعلت تلاعبهما ثم اجلستهما بجانب النار فأخذتا تلعبان بدمية كانت معهما وغوسيت تنظر اليهما وهي كامنة تحت المائدة نظرات تشف عن الحزن العظيم

ولكنها امتنعت عن العمل بحياكة الجرابات وجعلت تنظر اليهما

ثم دنت منهما كأنها تريد الاشتراك معهما وهي لا تجسر

فانتهرتها المرأة بعنف شديد قائلة

أهكذا تشتغلين أيتها الشقية

فابتسم لها الرجل وقال

دعيها ياسيدتي تلعب

ولو كان رجاها غير هذا الرجل مثل هذا الرجاء لعدت رجاءه أمراً فقطبت حاجبها وأجابته بلهجة جفاء قائلة

يجب أن تشتغل ما زالت تأكل

فقال لها بلهجة رقيقة لم تكن تنطبق على شكله وملابسه ماذا تشتغل ياسيدتي

قالت بحياكة زوج من الجرابات

— متى تنتهي منه

— بعد أربعة أيام على الاقل لفرط كسلها

— وكم يسوى هذا الزوج من الجرابات متى تمت حياكته

— يسوى فرنكا على الاقل

أتبيعينه بخمسة فرنكات

— إذا كان هذا مرادك بعتك إياه فاننا لا نرفض شيئاً مما يسألنا إياه الزبائن ولكن يجب أن يكون الدفع الآن

فاخرج خمسة فرنكات من جيبه ودفعها على المائدة وقال لها

لقد أصبح وقت هذه الطفلة لي الآن فقومي يا إبنتي والعبي

فلم تجسر غوسيت على الامتثال فنظرت الى سيدتها فسألتها قائلة أحق ما يقول

قالت نعم فالعبي

وذهبت صاحبة الفندق الى زوجها الذي كان يرى كل مايجرى فقالت له همساً

ماعسى يكون هذا الرجل وهو يلبس هذه الملابس الدنيئة

قال لقد رأيت بعض أصحاب الملايين يلبسون مثلها

فتركته وعادت الى الرجل فقالت له بمنتهى الدعة وهي تنظر اليه غير تلك النظرات السابقة

لا بأس من أن تلعب غوسيت هذه المرة ولكن لايجب أن تكثر من اللعب لئلا تتعوده

قال أما هي ابنتك

فتراجعت مستنكفة وقالت

كلا انها إبنة فقيرة اشفقنا عليها وآويناها ونحن نعاملها على قدر ما تسمح به حالتنا إذلسن من الاغنياء وقد كتبنا كثيراً الى أمها فلم تجبنا بحرف منذ ستة أشهر فلا بد أن تكون من الاموات والآن ألا تريد أن تأكل ياسيدى

قال اعطني قطعة خبز وشيئاً من الجبن

ثم انصرف إلى مراقبة غوسيت فوجدها قد أخذت لعبة إحدى البنتين فعانقتها ونسيت بعناقها الوجود

وبعد هنيهة انتبهت البنت إلى ما فعلته غوسيت فاخبرت أمها فانتهرتها بصوت وجف له قلبها فسألها الرجل قائلا

لماذا غضبت عليها وماذا فعلت

قالت ألا ترى انها تلعب بلعبة ابنتي

قال وإذا لعبت بلعبتها فماذا يكون

قالت انها تتسخ من أيديها القذرة

فقام الرجل من فوره ففتح الباب وخرج منه إلى الشارع ثم عاد وهو يحمل تلك الدمية الكبيرة التي كانت معروضة في المخزن المجاور للفندق . فدفعها الى غوسيت وهو يقول

خذي يا ابنتي فانها لك

فلم تصدق غوسيت عينيها وجعلت ترقص من فرحها غير مبالية بسيدتها لانها لم تكن تعلم ما تصنع من فرط سرورها

أما صاحبة الفندق فقد ذهلت مما رأته كما ذهل جميع الذين كانوا في الفندق وجعلت تقول في نفسها

ترى من عسى يكون هذا الرجل أهو فقير كما تدل ملابسه أم هو غني كما تدل أعماله أم هو مزيج من الاثنين أي من اللصوص

أما زوجها فكان يرى غير ما تراه امرأته فدنا منها وقال لها إن هذه الدمية تسوى ثلاثين فرنكا على الاقل فتيقظي وأكرمي مثوى الرجل

وكانت غوسيت لا تزال واقفة لا تصدق ولا تجسر على أخذ اللعبة فقالت لها المرأة وقد تغيرت عملا بوصية زوجها

لماذا لا تأخذي اللعبة يا غوسيت فانها لك

فبرقت عيناها بأشعة من الفرح لا توصف فلو خيرت في تلك الساعة بين أن تكون ملكة فرنسا أو صاحبة هذه اللعبة لاختارت اللعبة

فكانت تنظر اليها وهي لا تزال خائفة من المرأة أن تضربها إذ لم يكن يخطرلها أنها تنقلب فجأة هذا الانقلاب بل كانت تتوهم لشدة خوفها أنها إذا لمست اللعبة تخرج منها الرعود القاصفة فنظرت إليها نظرة الملتمس وأدركت القروية معنى نظراتها فقالت لها لقد قلت لك أن هذه اللعبة منحك إياها هذا السيد فالعبي بها فهي لك

فسالت الدموع من عينيها وعانقت لعبتها عناقاً طويلا وهي تقول

إني سأدعوها كاترين

ثم نظرت الى القروية وقالت لها

أتأذنين لي يا سيدتي أن أضعها على كرسي

قالت نعم يا ابنتي ولكن احذري أن تسقط فتنكسر

وقد قالت لها هذه الكلمات بلهجة تكلفت فيها الحنو ظاهراً فان الحقد كان يتأجج في صدرها لأنها رأت بنتيها تنظران الى تلك الدمية نظرات الحسد والانكسار

ثم أرادت ملافاة ذلك لوثوقها أنها لا تستطيع الصبر أكثر مما صبرت فأمرت بنتيها أن تدخلا إلى غرفة النوم واستأذنت من الرجل فأرسلت غوسيت أيضاً بحجة أنها تعبت في النهار ولابد لها من الاستراحة بالنوم فذهبت غوسيت تحمل لعبتها بين يديها وهي تحسب أنها ملكت الدنيا بما فيها

أما الفروية فانها لم تعد تستطيع أن تملك نفسها من الغضب فذهبت إلى زوجها وقالت له

ما هذا الوحش الذي جاء يقلق راحتنا في هذه الليلة . يشترى لعبة بأربعين فرنكا لبنت لا تسوى أربعين درهما فما هذا الرجل الخفى ألعله من المجانين

قال وما عليك منه لو اشترى لها هذه اللعبة فهذا إما أن يكون من الاغنياء وأهل الخير وإما أن يكون من البلهاء وفي الحالين فانه ينفق من جيبه فليفعل ما يشاء

وأقام الرجل فى موضعه لا ينقطع عن التفكير ودخل المسافرون غرف رقادهم وتفرق الذين كانوا يشربون فلم يبق فى القاعة غير الرجل وهو مطرق يفكر وتناردييه وامرأته وهما ينظران اليه نظرات تفاحص فلا يعلمان شيئاً من أمره لانه لم يكن يحدثهما بشيء بل كان جالساً جلوس الصنم لا يتحرك

ولبث على ذلك الى أن بلغت الساعة الاولى بعد انتصاف الليل فذهبت الفروية الى مخدعها إذ لم تعد تطيق الصبر وبقي زوجها وحده

فى انتظاره فقرأ الجريدة الحديثة ثم قرأ الجرائد القديمة حتى اعلاناتها والرجل جالس فى مكانه لا يتكلم ولا يتحرك

الى أن ضاق ذرع تنارديه فدنا منه وهو يحمل قبعته بيده وقال له بلهجة تشف عن الاحترام

ألا يريد سيدى أن يستريح بالرقاد

فتنبه الرجل من غفلته وقال

لقد أصبت فأين موضع الاصطبل

قال بل تنام يا سيدي في أحسن غرفة من غرف الفندق

وقد دخل به إلى غرفة أنيقة فأضاء الشمعة وانصرف

وكانت امرأته لا تزال ساهرة في غرفتها فلما رأته قالت له

أتعلم أنى سأطرد غوسيت غداً

فلم يجبها إذ كان يفتكر بهذا الرجل الذى لم يبق لديه شك أنه من كبار الاغنياء المتنكرين

وبعد هنيهة أطفأ الشمعة ونام

أما الرجل فانه جلس على كرسى وعاد إلي التفكير ثم نزع حذائيه وأخذ الشمعة بيده فخرج من تلك الغرفة إلى المكان الذى علم ان غوسيت تنام فيه فرآها نائمة على فراش من القش مغطاة بقطعة بالية من الحصير وهي قد ضمت لعبتها إلى صدرها وغطتها بثوبها كأنها كانت تخاف عليها البرد

وقد رأى بجانب ذلك المكان غرفة كان بابها مفتوحا وفيها

سر بان كانت البنتان نائمتين فيهما ورأى بالقرب منهما المستوقد وتحته حذاءان الواحد أكبر من الآخر فذكر أن هذه الليلة كانت ليلة عيد الميلاد وذكر عادة القوم في مثل هذه الليلة وهي أن الاطفال يضعون أحذيتهم بجانب المستوقد على رجاء أن ينهضوا في الصباح فيجدون فيها هدية العيد

فأخرج من جيبه قطعتين من النقود الفضية اللامعة فوضع في كل حذاء قطعة

ثم رأى بجانب الحذائين حذاء من الخشب وعليه سير من الجلد فأيقن أنه حذاء غوسيت وأنها وضعته هناك اقتداء بالبنتين فأخرج من جيبه ديناراً وهاجاً من الذهب ووضعه فيه ثم عاد إلى غرفته دون أن يشعر به أحد

* * *

وفي صباح اليوم التالي نهض تناردييه من رقاده فكان أول ما فعله انه كتب قائمة حساب الرجل فبلغت ثلاثة وعشرين فرنكا وهو لم يأكل غير خبز وجبن

وقد اعترضته امرأته قائلة أنه مبلغ عظيم أخاف أن لا يدفعه

قال بل يدفع أكثر منه لانه من كبار المتمولين

فذكرت إحسانه الى غوسيت فهاجت في صدرها كوامن الحقد عليه وقالت :

لقد أصبت بل يجب أن يدفع أكثر من ذلك

قال اذن قدميها له حين يستفيق

وتركها وانصرف

أما الرجل فانه لما استفاق نادى المرأة وسألها عن الحساب فقالت له : ألملك مسافر ياسيدي

قال نعم

قالت أليس لك شغل فى قريتنا

قال كلا فقد مررت بها دون قصد فكم يبلغ حسابي

فأعطته القائمة ونظر الى تلك الارقام دون أن يفهمها إذ كان يفتكر بغير ذلك من الشؤون ثم سألها عن حال فندقها

فعجبت كيف انه لم يعترض على الحساب وقالت له

انه على شر حال ياسيدي إذ يندر قدوم المسافرين أمثالك وجميع أهل القرية من الفقراء وفوق ذلك فان هـذه الصغيرة تكلفنا مالا يطاق

قال أية صغيرة تعنين

قالت هذه الصغيرة التي اعطيتها اللعبة أمس وحبذا لو تمكنت من التخلص منها

— من غوسيت

— نعم بل حبذا ياسيدى لو أخذتها فانى أدعو لك الله ما حييت

— أحق ما تقولين

— وأنت أحق أنك تأخذها

— دون شك

— أتأخذها اليوم

— بل في هذه الساعة فقولى لها تحضر والآن كم يبلغ حسابك

— ثلاثة وعشرين فرنكا كما تجده فى القائمة

— ثلاثة وعشرين فرنكا

نعم ياسيدى وما هذا بكثير

فأعطاها ما طلبت وقال لها اذهبى وعودى بغوسيت

وعند ذلك أقبل زوجها فقال

كلا انه مدين لنا بأقل من ذلك أما بشأن غوسيت فانى لي ما أقوله له فاتركينا وحدنا هنيهة

فانصرفت المرأة وهى لا تعلم مراد زوجها فخلا به تناردييه وقال له ان الذى أريد قوله لك ياسيدى هو انى أحب هذه الطفلة كثيراً حتى انى لا أستطيع التخلى عنها

فحدق به الرجل وقال له أية طفلة

قال غوسيت فانى ربيتها منذ سبعة أعوام فلم أعد أطيق فراقها

نعم إننا لسنا بأغنياء وانها كلفتنا كثيراً فانى انفقت على الادوية وحدها حين مرضها مالا يقل عن أربعمائة فرنك

ومع ذلك لم أبال فانها يتيمة لاأب لها ولا أم وقد تعلقت بها ولا استطيع فراقها كما قلت لك

وكذلك امرأتي فانها تحبها أيضاً ولا عبرة بما رأيته من تعنيفها إياها فما ذلك الا لحدة طباعها

وبعد فاسمح لي ياسيدى أن أكلمك بحرية فلا يمكن التخلي عن بنت ربيتها لاول زائر يطلبها

على انك ياسيدى قد تحن اليها فانك كريم غني طاهر القلب وقد يكون ذلك لخيرها ولكن لا بدلى أن أعلم الى أين تذهب على الاقل وعند من تقيم وأنا لا أعرف اسمك فقل لى الى أين تذهب بها بل أرني جوازك على الاقل

فأجابه الرجل بلهجة خطيرة فقال

ان من يجيء من باريس الى هنا أي ان من يجتاز مسافة لا تزيد على خمس مراحل لا يحتاج الى أن يكون معه جواز

وإني ذاهب بغوسيت اذا شئت دون أن أذكر لك اسمي ودون أن أدلك على منزلي فان كل ما أريده هو أن لا تراكم ولا تروها بعد الآن فهل يوافقك أن آخذها على هذا الشرط

فلما رأى تنارديه ما كان من شدته خاف أن تفوته الفرصة ورأى ان الحيلة فى ترك الحيل فقال له

لقد رضيت بشروطك على أن تعطيني ألفاً وخمسمائة فرنك لأفي بها ديوني

فأخرج الرجل من محفظته القدر المطلوب وأعطاه إياه قائلا له اسرع باحضار الفتاة

أما غوسيت فانهـا حين صحت من رقادها دخلت الى غرفة البنتين لتأخذ حذاءها فوجدت فيه قطعة وهاجة من الذهب

وكانت تسمع بالدنانير ولكنها لم تكن قد رأتها فكاد قلبها يطير سروراً وأسرعت الى ذلك الدينار فخبأته في جيبها كأنها سرقته

وقد علمت يقيناً من أين هبطت عليها هذه النعمة وكان كل شيء يخيفها حتى الذهب والدينار ما خلا ذلك الرجل فقد اطمأن قلبها اليه لأول وهلة

وخرجت من تلك الغرفة فأخذت المكنسة وبدأت بكناسة السلم فكانت تقف من حين الى حين فتخرج الدينار وتنظر اليه ولسانها مندلع ثم تعيده الى جيبها وتعود الى الكناسة

وفيما هي على ذلك سمعت سيدتها تناديها فأسرعت الى تلبيتها ودخلت بها الى ذلك الرجل ففك الصرة التي كانت معه وأخرج منها ملابس سوداء على قدر جسمها فأعطاها إياها وقال لها اسرعي والبسي هذه الملابس يا ابنتي

وبعد هنيهة عادت إليه بملابسها الجديدة فخرج بها فكانت تنظر وهي في الطريق الى الدينار ثم تنظر الى ذلك الرجل الغريب الذي لم تكن تعرفه كما ينظرون الى الله

***

وبعد انصرافهما بربع ساعة أخبر تناردبه امرأته بما كان وبما قبضه منه

فأنكرت عليه رضاه بالقليل وقالت له

لا شك ان هذا الرجل من كبار الاغنياء وانه جاء خصيصاً لاخذ غوسيت بدليل انه جاءها بثوب جديد يوافق حسمها

قال لقد صدقت فأعطني قبعتي لالحق به

وخرج عند ذلك وهو ينهب الطريق ركضاً حتى أدركه وهو يلهث من التعب وناداه

فالتفت الرجل وقال له وقد رآه يركض اليه ماذا تريد

قال أرجوك ياسيدي أن تعذرني فهذا المال الذي أعطيتني إياه أرده اليك

قال ماذا تعني بذلك

— أعني انى أريد أن أسترد غوسيت

— تريد أن تأخذ غوسيت

نعم ياسيدي فقد تمعنت فى الامر فوجدت أنه لايحق لى أن أعطيك إياها فان أمها ائتمنتني عليها فلا يسعني تسليمها إلا لامها

ولقد تقول لى أن أمها قد ماتت ففى هذه الحالة لا أستطيع أن أسلم بنتها إلا لمن يأتيني برسالة موقع عليها بتوقيع الام وهو طلب عادل واحتياط لابد منه يا سيدى كما تراه

فأخرج الرجل محفظته من جيبه وجعل يبحث فيهـا فيرى

تناردیه الاوراق المالية مكدسة ويقول في نفسه

إني لا أقنع إلا بأوفر نصيب

ولـكن ساء فاله فان الرجل لم يخرج أوراقاً مالية من المحفظة بل أخرج رسالة مكتوبة فدفعها إليه وهو يقول

لقد أصبت فاقرأ هذه الرسالة

فأخذها بيد ترتجف وقرأ فيها ما يأتي

« م . في ٢٥ أذار منه ١٨٢٣

إلى الموسيو تناردیه

« أرجو أن تسلم ابنتي غوسيت إلى حامل هذه الرسالة وهو « يعطيك الذي تطلبه من النفقات

فانتين »

فلما أتم تلاوتها سأله الرجل قائلا

أرأيت التوقيع .. أما هو توقيعها فاحفظ هذه الورقة فانها تنجيك من كل ما تخشاه من التبعات

فرأى تناردیه أنه لم يبق له سبيل الى الاعتراض ولـكنه كره أن يعود بخفي حنين فقال له

لا أنكر يا سيدى أن التوقيع توقيعها ولـكنها قالت في رسالتها أنك تدفع لى النفقات

قال اني يا موسيو تناردیه واقف على حقيقة أمرك فان أم هذه الفتاة كانت مدينـة لك بمائة وعشرين فرنكا في شهر كانون الثاني

فأرسلت تطلب اليها في شهر شباط أي بعد ذلك الشهر خمسمائة فرنك

ومع ذلك فقد أرسلت اليك في أواخر شباط ثلاثمائة فرنك ومثلها في أواخر آذار

ثم مضى على ذلك تسعة أشهر فاذا حسبنا ما كنت تقبض عن الفتاة على حساب خمسة عشر فرنكا في الشهر حسب الاتفاق في مدة تسعة أشهر كان مجموع دينك مائة وستة وثلاثين فرنكا وقد قبضت مائة فرنك زيادة من الحساب القديم

أما ما بقي لك من الحساب الجديد بعد خصم المائة فرنك فهو ستة وثلاثون فقد أعطيتك بدلا منها ألفاً وخمسمائة فماذا تريد بعد ذلك

فلما رأى أن لا حيلة له به وأنه واقف على جلية الامر عادت اليه جرأته فدنا منه وقال له

أنت يا سيدي الذي لا أعرف اسمه اختر بين أمرين إما أن ترد لي غوسيت أو تعطيني ألف ريال

فأخذ الرجل بيد غوسيت وقال لها بملء السكينة

هلمي بنا

وقد مشى بها إلى الغابة فلم يجسر تنادريه على اعتراضه اذهاله عرض اكتافه وأرعبته نظراته وندم أشد الندامة لانه لم يأت ببندقيته

وبعد أن وقف هنيهة بنظر اليه ويبتعد عنه وهو غير مكترث له قال فى نفسه

إنى أريد أن اعلم الى أين يذهب

وقد أخذ عند ذلك يقفو أثره

أما الرجل فانه كان يمشي ببطئ مطرق الرأس حزين النفس وتنادريه في أثره

وكان الرجل يلتفت من حين الى حين ليرى إذا كان أحد يتبعه فرأي تنادريه يقفوه فدخل بين الادغال مع غرسيت بحيث اختفيا عن الانظار

وعند ذلك أسرع تنادريه الخطي حتى توغل فى الادغال ورآه الرجل فنظر اليه نظرة تدل على القلق ثم هز رأسه واستمر على سيره

وعاد تنادريه إلى اقتفاء أثره إلى أن التقيا مرة أخرى فان الرجل كمن له فى منعطف حتى إذا وصل تنادريه إلى ذلك المنعطف نظر اليه الرجل نظرة منكرة هائلة فهلع قلب تنادريه من الخوف ورجع أدراجه

***

لم يكن جان فالجان قد مات كما توهمت الحكومة والجرائد حين سقط بل ألقى نفسه فى المياه

وحكايته أنه حين ألقى نفسه فى البحر جعل يسبح تحت المياه

تخفيه الدارعه الى أن وصل الى سفينة كانوا قد عوموها لاصلاحها

وهناك قارب ملصق بها فصعد اليه واختبأ فى جوفه إلى أن أرخى الليل ستوره

وعند ذلك ألقى نفسه فى المياه تخفيه ظلمات الليل وسبح الى الشاطيء عند رأس برين

وهناك اشترى ملابس فابدلها بملابسه وهام فى تلك الجهات فما زال يسير من بلد الى بلد حتى وصل إلى باريس ثم رأيناه فى مونتفرميل

وكان أول ما اهتم له حين وصوله إلى باريس انه اشترى ملابس حداد لفتاة تبلغ ثمانية أعوام ثم استأجر مكانا لمبيته ثم ذهب الى مونتفرميل

وكان قد اشترى الجرائد التى ظهرت منـذ يوم هربه الى اسبوع بعده فقرأ ما كتب عنه فيها واطمأن قلبه إذ ايقن أن الحكومة باتت تعتقد أنه من الاموات

فلما أخذ غوسيت من منزل تنادريه عاد بها توا الى باريس وذهبا إلى الغرفة التى كان قد استأجرها من قبل

أما غوسيت فقـد كان ذلك اليوم يوم غرائب عندها فانهـا أكلت وإياه فى أحد الدكاكين وركبت مركبة ثلاث مرات واجتازت فوق جسر ومشت كثيرا

فما شكت ولـكنها تعبت وشعر جان بتعبها فحملها على ظهره .

أماهي فانها لم تترك لعبتها كاترين لحظة فأسندت رأسها إلى كتفه ونامت.

***

وما زال يسير بها حتى انتهى الى الغرفة التى استأجرها في منزل كائن في شارع لا يكاد يمر به أحد من الناس لعزلته

وهناك أخرج مفتاحاً من جيبه فتح به باب المنزل ودخل الى غرفته وهي غرفة حقيرة لم يكن فيها من الاثاث غير فراش ممدود على الارض وطاولة وكرسيين ومستوقد

وقد وضع غوسيت على الفراش دون أن تستفيق ثم أنار شمعته وجعل يتأمل وجه تلك الطفلة وحنو قلبه يظهر في عينيه

وكانت يدها ممدودة على الفراش فقبلها كما قبل يد أمها منذ تسعة أشهر حين نامت نومها الاخير

وعند الصباح صحا من رقاده وهي لا تزال نائمة فما زالت غافلة الى أن مرت مركبة شحن فدوت عجلاتها على البلاط واستيقظت مرعبة قائلة

هو ذا أنا يا سيدتي

ثم نهضت وعيناها لا تزالان مطبقتين فجعلت تدور في الغرفة وهي تقول

رباه أين المكنسة

الى أن فتحت عينيها فرأت جان فالجان ينظر اليها وهو يبتسم فاطمأن قلبها وبادرته بالتحية

وعند ذلك ذكرت لعبتها فأسرعت اليها فعانقتها وعادت الى جان تسأله الاسئلة المختلفة عن مكان وجودها وعن باريس اذا كانت كبيرة كما يقولون وعن مدام تناردييه اذا كانت بعيدة كثيراً عنها واذا كانت تراها بعد الآن

فكان يجيبها عن كل أسئلتها بما يرضيها وهي تحسب أنها في جنان النعيم ببعدها عن ذلك الفندق

ثم سألته قائلة

هل يجب أن أكنس

قال كلا بل يجب أن تلعبي

وكان هذا اليوم أسعد أيام حياتها اذ صرفته بين لعبتها وبين ذلك الرجل الذي اوشكت أن تحبه كما تحب اللعبة

***

وفي اليوم التالي صحا جان فالجان حسب عادته وغوسيت لا تزال نائمة فجعل يتمعن في وجهها كما فعل بالامس وقد شعر بعاطفة جديدة وجد فيها ارتياحاً عظيما

وذلك أنه منذ خمسة وعشرين عاماً كان وحده في هذا الوجود فلم يكن أبا ولا عاشقاً ولا زوجا ولا صديقاً بل كان في السجن شريراً زنيما منقبضاً جاهلا همجياً

ولم يبق لاخته وأولاده غير أثر بعيد في مخيلته لم يلبث أن مسحته الايام

وكان قد أفرغ جهوده وبذل كثيراً من الاموال فى سبيل ايجادهم ولما لم يتمكن من ايجادهم تمكن من نسيانهم

فلما وجد غوسيت وأنقذها من مخالب تلك المرأة ورأى ماكان من ثقتها به وسرورها بعد ما لقيت من العذاب تحركت عواطفه الساكنة وحن قلبه اليها فكان يرتعش من السرور حين يراها

وهذا هو النور الروحانى الثانى الذى رآه فى حياته فان أول نور رآه عند الاسقف فاكتشف به الفضيلة وهذا النور الثاني رآه في تلك الطفلة فعرف به معنى الحب

وقد توالت الايام وكرت الاسابيع وهما على أسعد حال فان غوسيت كان تصحو في كل يوم فتفتتح يومها بالضحك والغناء فان الاطفال يغردون في الصباح كما تغرد العصافير

وكان يتفق أن جان يأخذ يدها أحياناً فيقبلها فلا تفهم معنى هذه القبلة لانها تعودت أن يضربوها فتطرق برأسها مستحية

وقد بدأ يعلمها القراءة فكان يجد سروراً عظيما بذلك ثم صار يعلمها الصلاة فكان يجد نفسه من أسعد البشر ويقيم ساعات بقربها وهي منهمكة بلعبتها والباسها ملابسها وملاعبتها فنسي أحزانه بل نسي شر البشر وبات يعتقد أن المرء مفطور على الخير والحق فلم يعد يلوم أحداً ولا يحقد على أحد من الذين أساؤا اليه ولا يقصر

همه إلا على أمر واحد وهو ان يدع هـذه الطفلة تحبه كما كان يحبها

***

وكان على وثوق من اعتقاد الحكومة بموته يبالغ في الاحتجاب من الناس فلا يبرح الغرفة في النهار ولايخرج إلا حين تخيم الغسق فيتنزه ساعة أو ساعتين وحده أو تصحبه غوسيت ويرجع إلى غرفته فيجد غوسيت مع لعبتها على أتم حالات الزهو

ولم يكن يغير ملابسه الخارجية التي كانت تشبه ملابس المتسولين حتى أن بعض السيدات كن يتصدقن عليه حين يرينه فلا يأنف من أخذ صدقتهن ويصبر إلى ان يمر به أحد الفقراء فيعطيه ما أخذه وزيادة

وكانت المرأة التي يقيم عندها عجوزا ثرثارة فكانت تسأل غوسيت أسئلة مختلفة بغياب جان فلم تعلم منها سوى أنها كانت في مونتفرميل في جهنم وان هذا الرجل جاء بها الى نعيم

وقد اتفق يوماً أنها خطر لها أن تراقب جان حين دخوله فلما دخل الى الغرفة وأقفل بابها نظرت من ثقب القفل فرأته قد حلّ سترته وجاء بمقص فقطع خيوط البطانة ثم أخرج منها ورقة مالية صفراء فوضعها فى جيبه

وبعد ذلك أخذ ابرة نخاط البطانة وأرجعها كما كانت

وكانت هذه المرة الاولى أو الثانية التي رأت فيها مثل هذه الورقة الصفراء

وبعد هنيهة خرج جان وناداها فاعطاها هذه الورقة التي أخرجها من بطانة ثوبه وقيمتها ألف فرنك فاعطاها إياها وسألها أن تصرفها له

فاخذتها العجوز وصرفتها في شارع سانتمرسيل فلغط أصحاب الدكاكين كثيراً في ذلك الشارع لتقير بتلك الورقة وكيف اتصلت بالعجوز

واتفق بعدذلك أن جان فالجان كان ينشر خشباً في رواق المنزل وقد خلع سترته في غرفته

وكانت العجوز وحدها في تلك الغرفة ترتبها لان غوسيت كانت تتفرج على نشر الخشب

فاغتنمت العجوز هذه الفرصة ودنت من السترة التي كانت مقلقة في الجدار وافتقدت البطانة فشعر أوراق كثيرة في داخلها وكلها من ذوات الالف فرنك

ولم تقتصر على ذلك في ابحاثها بل جيوب السترة العميقة فوجدت أشياء مختلفة كابرة يوط ومحفظة كبيرة وسكين حاد وشعور للتنكر فبدأت تخاف هذا الرجل وتشكك في هذه الثروة المخ ة ثوبه

***

كان يوجد قرب سانت مدار رجل فقير يجلس عند بئر فى الشارع فيمر به جان فالجان ويتصدق عليه بما يتيسر

وكان يحدثه أحياناً فقد سمع بعض الناس يقولون عنه أنه من رجال البوليس السرى فانهم لم يروه من قبل فى هذا الشارع وهو عجوز يناهز السبعين من العمر وقد مر به ليلة ولم تكن غوسيت تصحبه وهو جالس فى موضعه تحت مصباح من مصابيح الشارع فدنا منه وتصدق عليه صدقته المألوفة

وكان الشحاذ يصلى فى ذلك الحين فرفع عينيه فجأة ونظر الى جان فالجان محدقاً ثم أطرق برأسه مسرعاً

وكانت هذه الحركة سريعة ولكن جان فالجان ارتعش لها إذ خيل له انه لم ير فى ذلك الرجل وجه ذلك العجوز بل رأى وجهاً هائلا كان يعرفه

وقد تراجع منذعراً مرعباً فلم يجسر على التكلم ولا على الهرب ولا على البقاء إذ بات يعتقد أن وجه هذا الرجل مغطى بخرقة لا يعلم مافى داخلها

ولكنه مالبث أن عاد اليه رشده فقال فى نفسه

أن لهذا المتسول نفس القوام والشكل اللذين أراهما كل يوم . . فما هذا الاضطراب الذى تولانى . . العلى جننت

ثم عاد الى غرفته وهو شديد الاضطراب يناجى نفسه فيقول أيمكن أن يكون هذا المتسول جافرت . . كلا أن هذا محال

وقد ندم على أنه لم يكلم هذا الرجل ويضطره الى النظر اليه

وفى اليوم التالى ذهب أيضاً فى الليل متنزهاً على عادته فوجد المتسول فى موقفه فحياه وتصدق عليه وحادثه وتفرس فى وجهه وعاد وهو يقول

أنه الشحاذ بعينه فكيف رأيت فى وجهه أمس وجه جافرت وقد اطمأن ولم يعد يفتكر فى هذا الشان

وبعد ذلك ببضعة أيام كان فى غرفته فى الساعة الثامنة من المساء فسمع صوت فتح الباب الخارجى وتعجب لذلك اذ لم يكن يقيم فى ذلك المنزل سواه وكان يعلم أن العجوز تنام عند هبوط الليل كى لاتضىء شمعة

ثم قال فى نفسه انها قد تكون مريضة فذهبت الى احدى الصيدليات وعادت

وقد أشار الى غوسيت أن تسكت وأصغى فسمع وقع خطوات شديدة على السلم تختلف كثيراً عن خطوات العجوز

فاسرع الى اطفاء الشمعة وهمس فى أذن غوسيت قائلا نامي دون أن تتكلمى

ووقف مصغياً وظهره الى الباب وطال وقوفه دون أن يسمع حساً فالتفت فرأى نوراً ينبعث من الخارج وينفذ من ثقب القفل فى باب غرفته فلم يبق لديه مجال للشك أنه يوجد وراء ذلك الباب من ينظر الى غرفته من ثقب القفل

وبعد هنيهة ذهب ذلك النور ولكن لم يسمع وقع خطوات مما يدل على أن الذي كان يراقبه خلع نعليه

وقد نام ليلته بملابسه وهو على أشد حالات الاضطراب

وعند الصباح شعر بصوت فتح باب مجاور لغرفته فأسرع الى ثقب الباب فرأى رجلا خرج من تلك الغرفة

ولكنه لم ير غير ظهره فارتعش ارتعاشاً عنيفاً إذ رأى كتفيه وقوامه وطريقة مشيه وكل ذلك كان مشابها لجافرت

وكان بوسعه أن يفتح النافذة ويطل منها فيرى وجهه ولكن لم يجسر على ذلك حذراً من أن يراه

وقد ذكر أن هذا الرجل فتح الباب الخارجي بمفتاح فمن الذي أعطاه هذا المفتاح

ففي الساعة السابعة من الصباح دخلت العجوز لترتيب الغرفة فلم يسألها عن شيء ولكنها جعلت تحدثه وهي تشتغل فقالت له ألم تسمع بالامس وقع خطوات رجل دخل الى المنزل

قال نعم فمن هو هذا الرجل

قالت انه مستأجر جديد

قال ماذا يدعى

قالت لا أذكر اسمه بالتدقيق فهو يدعى ديمون أو ديمون

فلم يكن كل ذلك إلا ليزيد شكوكه

وعند المساء خرج بغوسيت بعد أن افتقد الشارع ولم يجد فيه ما يحمل على الريبة

وكانت الليلة مقمرة ومصابيح الشوارع مطفأة بسبب نور القمر فجعل يسير بهامن شارع الى شارع وهى لا تشكو تعباً وتسير معه ويدها في يده

وبينما كان يسير في أحد الشوارع شعر أن رجلين يتبعانه على مسافة بعيدة فانه كان كلما اجتاز شارعا يلتفت فيراهما فيه

وقد أراد أن يستوثق من ذلك فجعل يسير في شوارع مختلفة ويدخل في أروقة وزقاقات وكلما التفت يرى أن الرجلين يتبعانه ثم رأى وقد دخل أحد الشوارع أن الرجلين أصبحا أربعة ولكنهم كانوا يسيرون دائماً على مسافة بعيدة عنه كما قدمناه

***

ولم يبق لديه شك أن هؤلاء الرجال يتبعونه بأمر جافرت غير أنه ثبت له أيضاً أنهم مشككون في أمره يترددون إذ كانوا في البدء يستعجلون نفس استعجاله بحيث يدعون مسافة واحدة بينهم وبينه

ثم جعلوا يبطئون ثم كانوا يتوقفون كأنهم رجعوا عن اقتفاء أثره

فاغتنم هذه الفرصة وأسرع جداً في السير ورأى أن غوسيت قد أنهكها التعب فحملها واستأنف السير وجعل يجتاز شارعا طويلا

لم يكن يعرفه من قبل

وكان هذا الشارع لا منعطف فيه فلما بلغ الى آخره التفت الى ورائه فرأى على نور القمر أن الاربعة أصبحوا عشرة وأنهم لا يزالون في أول الشارع أي أن المسافة بينهما كانت تبلغ نحو ربع ساعة

وقدلقي في آخر هذا الشارع زقاقا ودخل اليه حتى إذا انتهى الى آخره وجد في وجهه سدا وأن هذا الزقاق لا منفذ له

وهنا تبين له الخطر العظيم ونظر الى السماء نظرة القانطين فان الزقاق لا منفذ له فيه يواصل سيره وإذا عاد الى الشارع فلابد له أن يلتقي بالذين يطاردونه فلم يبق سبيل له الى النجاة إلا بأعجوبة من السماء

وقدأخذ عندذلك يفحص الزقاق بسرعة التصور فان الوقت لا يتسع له للامعان فوجد البيوت فيه على الجانبين وكلها شاهقة البناء والمصابيح مطفأة كما قدمناه

غير أنه رأى بناية يبنونها حديثاً وقد تكدست الاحجار امامها الى علو ستة أقدام وبني وراءهذه الحجارة جدار عال لم يكن له باب ولامنفذ ورأى من وراء ذلك الجدار أطراف أشجار باسقة فقال في نفسه لابد أن يكون وراء هذه البناية حديقة ألجأ اليها وأن تسلق هذا الجدار سهل ميسور على أن المنفرجات كثيرة فيه إذ لم يتم بناؤه بعد

ولـكن كيف أصنع بغوسيت . وأين يجد حبلا يربطها به ويرفعها اليه وعند ذلك خطر له خاطر غريب لا يخطر للمرء إلا في مثل هذه المواقف الرهيبة

وهو أن هذا العهد لم تكن اخترعت بعد مصابيح الغاز فكانوا ينيرون الشوارع بمصابيح البترول

وكانوا يعلقونها في أماكن مرتفعة ويربطونها بحبل طويل وينزلونها ويرفعونها به كل ليلة حين اضائتها

وهذا الحبل يلتف بسلك وقد وضعت أطرافه في علبة الحديد تعلق في الجدار

فلما خطر لجان هـذا الخاطر وضع غوسيت قرب الاحجار المـكدسة وأسرع الى احدى تلك العلب فكسر قفلها بسكينه وأنزل المصباح فقطع الحبل المزدوج فأخذه وعاد به الى غوسيت

وكانت غوسيت قد بدأت ترتاب على ثقتها بجان فسألته عن سبب اضطرابه فقال لها

اني رأيت يا ابنتي أن تنارديه وامرأته قادمان يصحبهما الجنود لأخذك مني فهل تريدين أن تعودي اليهما

فذعرت وقالت وهي تبكي كلا

قال إذاً لا تقولي كلمة ولا تخشي أمراً لاني سأنقذك ونزع رباط قميصه فعقده على وسطها وربط به أحد طرفي الحبل وصعد بها فوق الاحجار المـكدسة

وهناك عاد الى تطمينها وقبض على طرف الحبل الآخر باسنانه وجعل يتسلق ذلك الجدار برشاقة عجيبة فلم يمض نصف دقيقه حتى انتهى الى أعلاه فركب فوقه وأخذ يجر الحبل ويرفع غوسيت حتى وصلت اليه

كل ذلك والجنود لم يصلوا بعد إلى الزقاق وربما كان ابطؤهم لوثوقهم من وقوع الرجل فى الشرك بعد دخوله الى هذا الزقاق الذى لا منفذ فيه

أما جان فانه حين وصلت غوسيت اليه اركبها ظهره وجعل يزحف بها على ذلك الجدار حتى انتهى منه الى سطح متصل به أدنى من الجدار فوثب اليه بحيث بات آمناً ان تراه العيون

وعند ذلك سمع صوتاً يقول

ابحثوا جيداً فى الزقاق فلا سبيل الى الخروج منه

فلم يبق له سبيل للشك اذ أيقن أن الصوت صوت جافرت وكان يوجد وراء ذلك السطح بستان كبير كثير الاشجار ورأى شجرة باسقة متصلة أغصانها بذلك السطح فتعلق باحد الغصون وغوسيت فوق ظهره ونزل بها على تلك الشجرة إلى البستان فتنفس الصعداء وأيقن من النجاة

وانما بقى عليه ان يعلم كيف يخرج من ذلك البستان العظيم بل أين يجد مأوى لغوسيت وقد أخذ البرد والنعاس يعملان فيها فأخذ بيدها وجعل يجول فى ذلك البستان باحثاً فوجده كثير

الاشجار والخضرة وفيه مقاعد من الحجارة وكثير من الاروقة المظلمه

وفيما هو على ذلك وقف منـذهلا اذ سمع أصوات بنات خارجة من جوف البستان ترتل تراتيل روحيـة وهي ممتزجة باصوات أطفال

فلم يعلم مصدر هذه الاصوات الشجيه ولا أين هو ولـكن هذه التراتيل أثرت عليه تأثيراً عظيما حتى انه ركع مصلياً فـلم ينهض حتى انقطعت تلك الاصوات وعاد السكون الرهيب الى ذلك البستان المظلم الذى لم يكن ينيره غير أشعة القمر تنفذ اليه من خلال الاشجار ويرقصها النسيم فوق العشب

وقد أخذ بيد غوسيت الى أحد تلك المقاعد الحجرية التى كانت تظله شجرة باسقة فجلس واياها فوقه وقال لها

ألعلك نعسانه ياغوسيت

قالت بل أشعر ببرد شديد ... ألا تزال هناك

— من هى

— مدام تنارديه

— كلا يا ابنتى فقد ذهبت ولم يبق سبيل للخوف

ثم خلع سترته فغطاها بها وقال لها

اخفت وطأة البرد الآن

— نعم ياأبى

— اذن انتظرينى هنيهة هنا فسأعود فى الحال

«وقد تركها وأخذ يبحث فى ذلك البستان عن مأوى لغوسيت فتوغل فيه الى أن وصل الى بناية لم تكن نوافذها مرتفعة عن الارض غير بضعة أقدام

ورأى نوراً ضئيلا ينبعث من احدى قاعاتها فدنا من تلك القاعة ونظر إلى داخلها من وراء زجاجها الشفاف فتراجع منذعراً اذ أنه رأى تلك القاعة مقفرة لاشيء فيها سوى شيء يشبه الجسم الانسانى كان ممدداً على الارض ومغطى بكفن أبيض فعلم سبب هذه التراتيل الروحية التى سمعها ولكنه لم يعلم أين هو ومن هو هذا الميت وهؤلاء الفتيات والاطفال الذين كانوا يرتلون

وقد عاد الى حيث ترك غوسيت فوجدها نائمة مغطاة بسترته فجلس بجانبها يفكر فى أمره وينظر اليها من حين الى حين

وبما هو غارق فى بحار تأملاته سمع صوتاً يشبه صوت الجلاجل فالتفت ونظر الى مصدر الصوت فرأى عن بعد رجلا يهبط وينهض بين الزرع وكلما هبط ونهض يسمع صوت الجرس فارتعش لخوفه من الافتضاح وقال فى نفسه

ان جافرت لابد أن يكون كامنا برجاله في الرواق وفى الشارع فاذا رآه صاحب الجلجلة حسبه لصا لا محالة وصاح مستنجدا فادركه جافرت

وقد حمل غوسيت برفق وهى نائمة وذهب بها الى ماوراء الادغال وأقام يراقب سير الرجال فكان يجد أن صوت الجرس

يبتعد حين ابتعاده ويقترب حين اقترابه مما يدل على أن الجرس كان معلقاً به فيهتز لحركة جسمه فمن هو هذا الرجل الذى يعلقون في عنقه الاجراس كما يعلقونها فى رقاب بغال القوافل

وفيما هو يفكر به أمسك بيده يد غوسيت فألقاها مجلدة من البرد فرجف قلبه من الخوف وناداها بصوت منخفض فلم تفتح عينيها فهزها فلم تستفق فقال فى نفسه

رباه أاملها ماتت

ثم فحص قلبها والرعب ملء قلبه فوجد أنه ينبض ولكنه ينبض نبضاً خفيفاً لايلبث أن ينقطع

وقد حملها بين الادغال وخرج بها وهو شبه المجانين لوثوقه انه اذا لم يجد لها ناراً تدفأ بهاوفراشا تنام عليه لايمر بها ربع ساعه حتى تصبح من الاموات

***

ومشى بها مشى القانطين الى ذلك الرجل صاحب الجلجلة حتى دنا منــه فوضع غوسيت تحت شجرة والرجل مشــغل عنه بالزرع فبادره بقوله

مائة فرنك

فالتفت الرجل منذعراً فقال له جان

مائة فرنك تكسبها اذا آويتنى هذه الليلة

وكان القمر بدرا وقد أنارت أشعته وجه جان فصاح الرجل قائلا

أهذا أنت ياسيدى مدلين

فتراجع جان اذكان يتوقع كل أمر ماخلا أن يذكر اسمه في هذه الظلمات وهذا المكان الذى لايعرفه ومن هذا الرجل الذي يجهله

وكان الذى يكلمه شيخ أحنت ظهره الايام وهو أعرج يلبس ملابس القرويين وقد علق في ركبته جرساً كبيراً

أما وجهه فلم يكن ظاهراً لانه كان واقفاً في الظل

وبعد ان ثاب الشيخ من دهشته رفع قبعته وقال

رباه ما هذا . . كيف اتفق وجودك هنا ياسيدى المحافظ . . ومن أين دخلت .. ألعلك هبطت من السماء . . لاجرم انك إذا هبطت فلا تهبطة الا من هناك . . وبعد فاين رباط رقبتك وأين قبعتك بل أين سترتك . . أتعلم انه لو رآك رجل لايعرفك وأنت على هـذه الحال لخافك ولو كان من الشجعان ... رباه ماذا أرى ألعل رجال الله أصبحوا الآن من المجانين .. ولكن قل لى بربك كيف دخلت

وكان الشيخ يقول هذه الاقوال مسرعا فلا يدع لجان مجالا للكلام حتى اذا توقف عن الحديث سأله جان قائلا

من أنت وما هذا المكان الذي أنا فيه

قال عجباً كيف لاتعرفني ياسيدى وأنت الذي عينتنى في هذا المكان أما عرفتنى

— كلا وأنت كيف عرفتني

— ألم أقل لك اني صنيعتك . . وبعد ألا تذكر اني مدين لك بالحياة وانك أنقذتني من الموت

ثم مشى الى جهة النور بحيث سقطت أشعة القمر على وجهه فعرف جان انه الاب فوشلفان وهو ذلك الشيخ الذي أنقذه حين سقط تحت عجلات المركبة كما يذكر القراء وقال له

أهذا أنت .. نعم لقد عرفتك فماذا تصنع هنا

— اني أغطي البطيخ الاصفر الذي زرعته

وكان يحمل حصيرا في يده فغطى بها الشمام وعاد إلى حديثه فقال

انى رأيت القمر صافياً وفي مثل هذه الحال لابد من الصقيع فرأيت أن أغطى الشمام حذرا عليه من الصقيع

ثم نظر الى جان فضحك وقال

وأنت لقد كان يجب أن تقتدى بى

فقال له جان وما هذا الجرس المعلق بركبتك

— لقد أمرت بتعليقه كى يجتنبوني حين يسمعون صوته

— كيف ذلك

— ذلك انه لايوجد هنا غير فتيات لاحق لهن أن يرين الرجال حذراً من الخطر فمتى سمعن صوت الجرس يبعدن عنى

— ما هذا المنزل

— انك تعرفه حق العرفان

— كلا لاأعرف شيئاً منه

— ولكنك انت الذى عينتنى فيه

— أجبنى كانى لاأعرف شيئاً

— انه دير بكبيس

فعادت الذاكرة الى جان فذكر انه بعد أن أنقذهذا الشيخ من تحت المركبة حين كان محافظا عالجه فى المستشفى ثم اعطاه كتاب وصاية الى رئيسة هذا الدير وذلك منذ عامين

أما الشيخ فانه كان لايزال متعجب من دخول جان الى هـذا الدير فعاد إلى سؤاله قائلا

ولكن كيف صنعت فتمكنت من الدخول إلى هذا الدير الذى لا يدخل اليه رجال على الاطلاق

قال ولكنك فيه . . أما أنا فلا بدلي الآن من البقاء هنا

فحك الشيخ أذنه وقال

رباه ما ذا أسمع

قال أذكر يا فوشلفان أنك مدين لى بالحياة

— انا الذى ذكرتك بهذا الامر الذى لا أنساه مدى الحياة

— إذن أنك تستطيع انقاذى كما أنقذتك أمس

— إذا تمكنت من ذلك كنت أسعد خلق الله فماذا تريد أن أصنع

— سأخبرك بذلك فيما بعد والآن أعندك غرفة

— يوجد مكان وراء خراب الدير القديم خاص بي وفيه ثلاث غرف وهو مكان معتزل لا يراه أحد

— حسناً والآن فاني أسألك أمرين

— ما هما يا سيدي

— أولهما أنك لا تخبر أحد بما تعرفه من أمري

— والثاني

— أن لا تحاول معرفة أكثر مما عرفت

— كما تشاء يا سيدي فاني و ثق أنك من رجال الله وأنك لا تفعل غير الخير وفوق ذلك فاني لك بجملتي أما أنا مدين لك بالحياة

— إذن هلم بنا الآن نأت بالطفلة

— أمعك طفلة

ولم يزد على ذلك شيئاً بل تبعه فأخذ جان غوسيت وسار بها مع الشيخ الى غرفته فلم يمض نصف ساعة حتى تورد خداها بعد الدفيء وعادت اليها الحياة

وعند ذلك أخرج الشيخ من خزانته خبزاً وجبناً وزجاجة خمر وكاسين فجعلا يشربان والشيخ يعاتبه فيقول

أتنقذ الناس من الموت ثم تنساهم . ولكنهم يذكرونك بالخير مدى الحياة

***

ولنذكر الآن كيف أن جافرت عرف بوجود جان فالجان في باريز وأخذ يتعقبه كما رأيناه فنقول

أنه بعد أن قبض عليه في الغرفة التي كانت فيها فانتين وبعد أن هرب من السجن الذي وضعه فيه خطر لرجال البوليس أن جان هرب الى باريس وأرسلوا جافرت ليقفو أثره فيها

وهناك توفق الى القبض عليه وهو يصعد الى المركبة كما قدمناه فسر رؤساؤه منه ورضوا عنه فعينوه في ادارة البوليس في باريس ولم يعد يخطر له جان في بال

واتفق أنه قرأ جريدة في شهر كانون أول سنة ١٨٢٣ وانما قلنا اتفق لانه لم يكن يقرأ الجرائد فاستلفت نظره ورود اسم جان فالجان فيها وقرأ ما كتب عنه يوم سقط في البحر فأيقن أنه مات ومحاه من ضميره

وبعد مدة قرأ في مذكرة وردت الى ادارة البوليس تتضمن اختطاف فتاة من قرية مونتفرميل تبلغ الثامنة من عمرها وأن هذه الطفلة كانت عهدت بها أمها الى فندقي في تلك القرية يدعى تناردييه . وأن رجلا لا يعرفونه سرقها . . وأنها تدعى غوسيت وأن أمها كانت تدعى فانتين وقد ماتت في أحد المستشفيات

وكان جافرت يعرف فانتين وذكر انه حين قبض على جان فالجان عندها أنه استمهله ثلاثة أيام ليأتي بطفلتها

ثم ذكر أنه حين قبض على جان فالجان في باريس كان يحاول الركوب في مركبة ذاهبة الى مونتفرميل

وقد عرف يومئذ بعد البحث أنه قد ذهب الى ضواحي تلك القرية فظل في ذلك العهد يسأل نفسه عن سبب ذهابه الى تلك الضواحي فلا يهتدي اليه

أما الآن فقد عرف السبب وهو أن ابنة فانتين موجودة هناك وأنه ذهب ليأخذها

والآن فمن عساه يكون هذا الرجل الذي اختطف الفتاة وهم لا يعرفونه أيمكن أن يكون هو جان فالجان وهو قد مات

وقد ذهب في ذلك اليوم الى مونتفرميل دون أن يخبر أحداً مقصده على رجاء أن يجد هناك نوراً يهتدي به فلم يجد غير الظلمات

وذلك أنه في اليوم التالي لذهاب غوسيت شاع في القرية خبر اختفائها وكثر تداول هذه الاشاعة حتى اتصلت بادارة البوليس

أما تناردييه فانه حين رأى كثرة تداول الاشاعة خاف شر العاقبة وتوقع مداخلة البوليس فتأهب لها

فلما جاء جافرت وسأله عن تلك الطفلة وما أشيع بشأنها ضحك وقال

ما أكثر الاراجيف في هذه القرية فان هذه الطفلة التي ربيناها كما نربي بناتنا لم يخطفها أحد بل جاء جدها بعد موت أمها وآخذها

فقطب جافرت حاجبيه وقال له

من هو جدها هذا وماذا يدعى

قال انه يدعى غيليوم لامبرت وهو من كبار المزارعين فقد رأيت جوازه

فعاد الى باريس وهو يقول في نفسه ان جان فالجان قد مات وما اشتغالي به إلا من قبيل الاوهام

وقد مرت الايام وتناسى هذه الحادثة الى أن سمع في خلال سنة ١٨٢٤ أن الناس يتحدثون عن رجل غريب الاطوار يقيم في شارع سانت مدار يلقبونه بالمتسول وهو يتصدق على الفقراء

ومما كانوا يقولون أنه من الاغنياء لا يعلم أحد مصدر ثروته ولا يعرفون اسمه وأنه يقيم وحده مع طفلة يبلغ عمرها ثمانية أعوام وأن هذه الطفلة لا تعرف من أمرها سوى أن هذا الرجل جاء بها من قرية مونتفرميل

فلما سمع جافرت اسم هذه القرية عاد الى التذمر واستقصى عن هـذا الرجل فعلم أنه يبالغ في اجتناب الناس ولا يخرج من غرفتـه إلا حـين يخيم الظلام وأنه يلبس سترة اصفرت لقدمها ولـكنها تسوى ملايين لأن بطانتها محشوة بالاوراق المـالية

فهاجت هذه الانباء فضول جافرت وأراد أن يعرف هذا الرجل

فدعا بذلك المتسول الشيخ الذى كان يتصدق عليه جان فأخذ ثيابه فتنكر بها وجلس حيث كان يجلس

فلما مر به وتصدق عليه كما تقدم نظر اليـه فارتعش ارتعاشاً عنيفاً اذ قيل له انه رأى جان فالجان كما خيل لجان ساعتئذ انه رأى جافرت

غير ان لم يتبين وجهه لشـدة الظلام ثم كان يعتقد انه ميت فخامره الشك وسال العجوز التى كان يقيم عندها فأخبرته بورقة الالف فرنك التى صرفتها له وعما يوجد من الاوراق المالية فى بطانة سترته فاستأجر غرفة عندها

وقد رأيناه كيف دخل فى الليل وكيف جعل يراقبه من ثقب القفل على رجاء أن يراه وان يسمع صوته وكيف ان جان أطفأ الشمعة وحبس لسانه عن الكلام لما خامره من الريب بهـذا الجاسوس

وفى اليوم التالى علمت العجوز ان جان يريد أن يبرح منزلها فأخبرت جافرت

فلما أقبل الليل ودنا موعد خروج جان كان جافرت كامناً له من وراء الاشجار مع اثنين من رجاله وجعل يقفو أثره كما بسطناه

ولقائل يقول كيف انه لم يقبض عليـه فى غرفته أو حين كان يطارده أو حين مر به وهو كامن له فيساله عن جوازه على الاقل

فنقول انه لم يفعل ذلك لاسباب شتى منها انه كان لا يزال مشككا

به ولم يكن لرجال البوليس فى ذلك العهد من حرية الاجراء مالهم اليوم فان الحرية الشخصية كانت عندهم من أقدس الامور فمن قبض من رجال البوليس على رجل خطأ عوقب بالعزل مهما كان منصبه وعنفته الجرائد أقبح تعنيف

ومنها ان هذا الرجل قد يكون غير جان فالجان وانه لا يتصدق على الفقراء ولا يحتجب عن الناس الا لغرض خفى وانه قد يكون رئيس عصابة هائلة فاذا اقتفى أثره دون أن يقبض عليه عرف مقر العصابة فقبض على الجميع

وما زال مشككا بأمره الى أن رآه مر بحارة كان معلقاً على بابها مصباح كبير وقد التفت جان عند ذلك ليرى اذا كانوا لا يزالون فى أثره فرأى وجهه على نور المصباح ولم يبق لديه شىء من الشك

وكان يعلم ان الشارع الذى يسير فيه ينفذ الي زقاق لا منفذ فيه فوثق من القبض عليه وأوقف رجاله فى الشارع فذهب الى أقرب مركز للبوليس فجاء بمدد ومشوا جميعهم الى ذلك الزقاق بينما كان جان يهبط ومطمئنا الى حديقة الدير

وقد كان يأسه عظيما حين بحث فى الزقاق بحثاً دقيقاً فلم يفز ببغيته ورأى وهو يبحث ان حبل المصباح مقطوع فأيقن ان جان قد استعان به للتسلق .

ولكنه لم يعلم أين تسلق فان المنازل كانت متلاصقه فى علو جانبي الزقاق

ان نابليون اخطأ فى حربه الروسيه واسكندر المكدونى أخطأ فى حرب الهند والقيصر أخطأ فى الحرب الافريقيه

وكذلك جافرت فقد أخطأ فى مطاردته جان فالجان لتردده فى معرفة جان فالجان فقد كان يجب أن يعرفه لاول نظرة وأخطأ لانه لم يسرع الى القبض عليه حين عرفه على نور المصباح قبل ان يدخل الى الزقاق وأخطأ بسيره مع الجنود فى قارعة الطريق على نور القمر ومهما يكن من خطائه ويأسه فانه لم يفقد صوابه ولبث واثقاً ان جان فالجان لايمكن أن يكون بعيداً من ذلك المكان فبث العيون والارصاد في ذلك الشارع وعاد الى ادارة البوليس عند انبثاق الفجر وهو خجل من نفسه والياس ملء قلبه

***

ولنعد الآن الى جان فالجان فانه بعد ان اطمأن قلبه على غوسيت وبعد ان دبت الحرارة اليها ونامت فى فراش الشيخ نوما هادئاً

جلس مع ذلك الشيخ فأكلا وشربا زجاجة من الخمر واضطجع كلا منهما على فراش من القش اذ لم يكن يوجد غير فراش واحد نامت عليه غوسيت

وكان جان قد قال لفوشلفان أنه يريد أن يبقى فى الدير فشغل هذا القول قلب الشيخ فلم ينم لحظة

وكذلك جان فانه بات واثقاً ان جافرت أهتدى اليه فلم يعرف

الرقاد فى تلك الليلة ولم يكن يجول فى خاطره غير فكر واحد وهو البقاء فى هذا الدير اذ لا أمان له الا فيه

وعند الصباح أخذا يتداولان فى أمريهما فبدأ الشيخ الحديث فقال أول ماأوصيك به هو أن لا يجب أن تبرح هذه الغرفة لا أنت ولا الطفلة أو تتعرض كلنا لاشدالاخطار

قال هو ذاك

قال أنك أتيت ياسيدى فى فرصة صالحة من حيث أنها لاتنبه الينا الانظار لانشغال الراهبات عنا براهبة مشرفة على الموت ويظهر أنها باتت في درجة الاحتضار بدليل صلاتهن فاذ لهن صلاة خاصة بالموت وسنكون اليوم آمنين أما غداً فلاأعلم ما يكون

قال ولكن هذه الغرفة كائنة وراء الخراب والاشجار تكتنفها فلا يرونها من الدير

— بل ان الراهبات لا يقتربن منها

— إذن ما هذا الخوف

— انى أخاف من صغار البنات

— ما شأن هؤلاء الصغار

وعند ذلك دق جرس الكنيسة دقة واحدة فقال الشيخ لقد ماتت الراهبة دون شك وقد بدأوا يدقون دقات الحزن . . اسمع

ثم أجابه على سؤاله فقال

يوجد فى الدير بنات صغيرات يتعلمن فيه وهن يلعبن فى كل مكان من البستان ويكفى ان تقع كرة لهن بجوار غرفتى فيسرعن اليها ومتى رأينك يصحن كلهن بصوت واحد هوذا رجل . . هوذا رجل ولكن لا خطر علينا اليوم منهن فانهن سيقضين كل يومهن عاكفات على الصلاة

وكان الشيخ يحدثه عن الصغار وجان يفتكر بغوسيت ويقول فى نفسه

لقد وجدت مكاناً صالحاً لتعليمها وتربيتها

ثم أجابه الشيخ على كلامه فقال

نعم أن البقاء هنا صعب

قال هو ذاك ولكن الخروج أصعب

— أأخرج من هنا

— ذلك لا بد منه ياسيدى مدلين فانهم إذا رأوك يسألونك كيف دخلت ومن أين أتيت أما أنا فاعتقد أنك هبطت من السماء لانى أعرفك ولكن الراهبات لا يعتقدن اعتقادى . . وبالله ياسيدى ألا تستطيع الخروج من حيث دخلت فكيف أتيت

فاصفر وجه جان لانه كان على أتم ثقة من أن جافرت يكمن له فى الزقاق فاذا عاد اليه يكون كمن القى نفسه فى الفخ المنصوب له فاجابه بلهجة تدل على الحزن العميق فقال

يستحيل أن أخرج كما دخلت فابن على افتراضك اني هبطت من فوق

— لا شك عندى أن الله أخذك بيده لتنظر عن كثب ثم تركك فسقطت فى دير نساء بدلا من أن تسقط فى دير رجال

وبعد فان طفلتك لا تزال نائمة فماذا تدعى

— غوسيت

— أهى ابنتك

— بل انى جدها

— أن خروجها من الدير سهل فانى محق لى الخروج من الدير حين أريد فاصل إلى الباب والزنبيل على ظهرى فاطرقه فيفتح لى فاخرج والطفلة فى الزنبيل فلا ينتبه إلي أحد

إنما يجب أن تعلمها وتوصيها أن لا تفوه بكلمة

وعند ما أخرج بها وأودعها عند امرأة عجوز أعرفها وأثق بها ثم تعود وإياها الى الدير إذ لا بد لى من ادخالك اليه ولكن كيف السبيل إلى اخراجك منه

— ان السر كل السر هنا فافتكر فى طريقة تخرجنى بها كما تخرج غوسيت

وعند ذلك سمع الشيخ دق جرس بشكل خاص فوقف مسرعاً وقال أن الرئيسة تدعوني اليها فابق هنا إلى أن أعود

وقد أسرع إلى غرفة الرئيس فدخل وانحنى بملء الاحترام

فنظرت اليه الرئيسة نظرة رفق وقالت
أهذا أنت يا فوشفلان فانى دعوتك
قال وقد أسرعت بتلبية امرك أيتها المحترمة
— لى ما أقوله لك
— وانا كذلك يا سيدتى فلى ملتمس أرجو أن يكون مقضياً باذن الله
— قل

فأخذ الشيخ عند ذلك يبسط لها باسهاب — مايلاقيه من مشاق الاعمال بسبب كبر سنه وعرجه وبسبب اتساع البستان وزيادة مغروساته بحيث بات يتطلب عملا مزدوجاً مثال ذلك أنه رأى القمر أمس صافياً فخشى الصقيع وقام عند إنتصاف الليل يغطى الشمام بالحصر حذار من اتلافه

وقد تخلص من ذلك الى قوله ان له أخاً

فارتعشت الرئيسة

ولكنه أسرع فقال لها

أن أخى شيخ يناهز الستين من العمر فاذا أذنت يا سيدتي كان اخي معى يعيننى على العمل فى البستان وهو من المشاهير الحاذقين فى هذه الصناعة فيفيد الدير بخدماته فائدة تذكر

وأما اذا لم تأذنى يا سيدتى اضطر مرغماً الى التخلى عن العمل لاني لم أعد أجد قوة لاتمامه . وقد بلغت من العمر عتياً كما تعلمين

ثم ان لاخي بنتاً صغيرة تدخل معه إلى الدير وتنير قلبها بتعاليمه الطاهرة ومن يعلم فقد يكتب لها الله أن تنخرط في سلك رهبنتكن المقدسة

فلما فرغ من حديثه لم تجبه الراهبة على شيء مما قاله بل سألته قائلة

هل تستطيع من الآن الى المساء أن تأتيني بقضيب غليظ من الحديد

— لاى غرض يا سيدتي

— لاستخدمه كما يستخدمون المخل

— دون شك ياسيدتي فان هذا سهل ميسور

فتركته ودخلت إلى قاعة كان مجتمعاً فيها بعض الراهبات وبعد ربع ساعة عادت اليه فجلست في كرسيها وقالت له أتعرف كنيسة الدير

— نعم فقد دخلت اليها مرات لحضور الصلاة

— أدخلت الى الهيكل

— نعم دخلت اليه مرتين

— أننا نريد رفع حجر فيه

— أهو ثقيل

— هو تلك الرخامة الكائنة بجانب المذبح

— أهي تلك الرخامة التي يسد بها مدخل القبو

— هي بمينها

— هذه فرصة مناسبةلوجود رجلين

— أن الراهبة أسانسيون تساعدك وهي شديدة القوى

— مهما بلغت من القوة فلاتضاهي الرجال

— أنها تساعدك على قدر قوتها فان الدير لايكون معملا

— وكذلك المرأة لا تكون رجلا يا سيدتي وأخي قوى

يد

— وبعد فانه سيكون لك المخل

— هذا خير مفتاح لهذه الابواب

— ثم أنه يوجد حلقة من الحديد في الرخامة

— سأدخل فيها المخل

— هذه الرخامة موضوعة بشكل يمكن فيه أن تدور

— إذن سأفتح القبو يا سيدتي

— وسيساعدك أربع راهبات بدلا من راهبة

— وبعد ان افتح الباب

— يجب ان تقفله

— أهذا كل ما أصنعه

— كلا

— اذن تفضلي باصدار أوامرك ياسيدتي

— ان ثقتنا بك شديدة كما تعلم

— وأنا لا أسأل الله إلا أن يحقق هذه الثقة فانى هنا لاصنع كل شىء

— ولتكتم كل شىء

— هذا لاريب فيه ياسيدتى

— فانك حين تفتح باب القبو

— أعود الى اقفاله

— ولـكن قبل ذلك

— ماذا يجب أن أصنع ياسيدتى

— يجب أن تنزل اليه شيئاً

وهنا ساد السكوت وظهرت علائم التردد على الرئيسة ولـكن هذه العلائم لم تطل فعادت الى الحديث فقالت

لقد علمت أنه ماتت راهبة اليوم فى الدير

— كلا ياسيدتى لم أعلم

— الم تسمع دقات الحزن

— لا يمكن أن أسمع شيئاً من داخل البستان

— أحق ماتقول

— دون شك ياسيدتى فانى لا اكاد أسمع صوت جرسى

— ان الراهبة ماتت عند انبثاق الفجر وهى السعيدة الذكر الراهبة كريسيفيكسيون

— انى أسمع الآن صوت الجرس

— ان الراهبات جئن بها الى الغرفة المشرفة على الكنيسة

—أعرف ذلك

—ولا يجب أن يدخل سواك من الرجال الى هذه الغرفة

وعند ذلك دقت الساعة التاسعة

فركعت الرئيسة وقالت

في الساعة التاسعة وفي كل ساعة من ساعات الليل ليتمجد اسمك أيها الخالق القدير

فقال الشيخ آمين

وعادت الرئيسة الى الحديث فقالت

إن الراهبة الفقيدة كانت في حياتها تهدي الناس الى الايمان وستصنع بعد موتها العجائب

— هذا لا ريب فيه

— وانها بقي لها رشادها الى آخر لحظة من حياتها فحدثتنا ثم حدثت الملائكة ثم أوصتنا وصيتها الاخيرة

ولو كان أيمانك كثيراً وحضرت ساعة احتضارها لشفتك من عرجك لانها كانت تبتسم وهي تحتضر كأنها كانت تلقى وجه الله فهي دون شك ذاهبة الى جنان النعيم

— آمين

— ألا تعلم أن وصية الميت لابد من قضائها

— سيدتي إن صوت دقات الجرس يسمع من هنا أكثر مما يسمع من البستان

— وفوق ذلك فان هذه الميتة كانت قديسة

— وأنت كذلك يا سيدتي

— وانها كانت تنام في تابوتها منذ عشرين عاماً باذن خاص من قداسة البابا بيوس السابع

— أما هو الذى توج الامبراطور نابليون

وقد أخطأ الشيخ فوشلفان بذكر هذه العبارة ولكن الرئيسة لم تنتبه اليها لانصرافها الى ما كانت تفكر به فقالت له

إن القديس ديودور أمر أن يكتبوا على قبره « دودة أرض » وقد فعلوا أليس كذلك

— نعم يا سيدتي

— وأن القديس ترانس أمر أن يضعوا على ضريحه تلك العلامة التي يضعونها على قبر من يقتل أباه على رجاء أن يبصق من يمر بقبره عليه وقد فعلوا إذ لابد من تنفيذ وصايا الموتى

— هذا لا ريب فيه

— وأن الراهبة الفقيدة ستدفن في تابوتها الذي ترقد فيه منذ عشرين عاماً كأنها لا تزال نائمة

— إذن يجب عليّ أن أسمر التابوت التي تكون فيه

— نعم

— وندع التابوت الرسمي على حدة

— هو ذاك

— إني رهن أمر سيدتي

— وسيساعدك البنات الاربع

- لاحاجة لى الى مساعدتهن فى دق المسامير

— بل انهن يساعدنك على انزال التابوت

— الى أين

— إلى القبر

— أي قبر

— القبر الكائن تحت الهيكل

— القبر الكائن تحت الهيكل ؟

— هو ذاك

— ولكن . . .

— سيكون لك محل تضعه فى حلقة الرخامة فيهون عليك رفعها

— ولكن ياسيدتي ...

— لا سبيل الى عصيان إرادة الاموات فانها أوصت فى حياتها أن تدفن بعد موتها تحت الهيكل

— ولكن هذا ممنوع ياسيدتى

— ان الناس يمنعونه ولكن الله يأمر به

— وإذا افتضح الامر

— إن لنا بك ملء الثقة

— وان أسكت سكوت قبرها

— وقد عقدت جلسة خاصة واستشرت الراهبات فارتأين بالاجماع أن تدفن الفقيدة في تابوتها تحت الهيكل عملا بوصيتها

— وقومسيرير البوليس

إن شونودمير أحد مـلوك الالمـان السبعة الذين دخلوا الى بلاد الغال فى عهد أمبراطورية كونستانس اذن أن تدفن الراهبات والرهبان تحت الهيا كل . والآن فهل اتفقنا على ذلك

— كما تشائين ياسيدتي

— أيمكن أن اعتمد عليك

— لقد أمرت فوجبت علي الطاعة

— اذن ستسمر التابوت فيحمله الراهبات الى الكنيسة وعند انتصاف الليل تأتي بالمخل ويتم كل شيء بالسر إذ لا يكون فى الكنيسة ساعتئذ غير الراهبات الاربع وأنت

— ان المخل ياسيدتي يجب أن يكون طوله ست أقدام

— حسنا فأت به قبل انتصاف الليل بربع ساعة ولا تنس

— سيدتي

— ماذا

— اذ احتجت بعد ذلك الى مثل هذه الاعمال الشاقة فان أخي قوي كما قلت لك

— انك ستسرع دون شك فى قضاء هذه المهمة

— لا أستطيع ان أضمن السرعة ياسيدتى لضعفى ولذلك لتمست منك تعيين مساعد فانى أعرج

ليس العرج مدعاة الى الضعف فإن الامبراطور هنرى الثاني الذى حارب غريفوار ورد كيده الى النحر وعين بنوا الثالث كان يلقب بلقبين أحدهما القديس والآخر الاعرج

— إني افعل ياسيدتي كل ما استطيع فعله فى سبيل خدمة الدير فأسمر التابوت وأحضر الى الكنيسة قبيل انتصاف الليل بالمخل فافتح باب القبو وانزل اليه التابوت وينتهي كل أمر فلا يبقى أثر ولا يعرف رجال الحكومة شيئاً أليس هذا كل الامر ياسيدتي

— كلا

— ماذا بقى بعد

— بقى التابوت الرسمى الذى لابد من دفنه فى التربة فانه سيبقى خالياً فماذا تصنع به

— ندفنه فى التربة

— أندفنه خاليا

— اني سأكون وحدى فى الكنيسة حين اسمر التابوت وسأضع فوق التابوت الرسمى وشاح الموتى

— نعم ولكن الذين يحملونه وينزلونه الى الحفرة يعلمون أنه خال لخفته

— اذن سأملاه ترابا فيشعرون بالثقل

— لقد أصبت فان الانسان من تراب وعلى ذلك فقد اتفقنا فستملأ التابوت ترابا

— سأفعل ياسيدتي فاطمأني

فأشرق وجه الرئيسة بعد ان اطمأن دليها وقالت له

اني راضية عنك بعد ماتبينته من اخلاصك فأتني غداً بعد الدفن بأخيك وبنته

.

ان الاعرج بخطواته كالاعور بنظراته لا يصل مسرعا الى غاياته وفوق ذلك فان الشيخ كان حائراً ومضطربا فلم يصل الى حيث كان جان الا بعد ربع ساعة فوجد غوسيت قد استفاقت وأجلسها جان بقرب النار

فلما دخل فوشفلان أراها جان زنبيله المعلق في الجدار وقال لها

اعلمي ياغوسيت انه لابد لنا أن نخرج من هذا المكان ثم نعود اليه ونعيش فيه اهنأ عيش

وأن هذا الشيخ الكريم سيحملك على ظهر هذا الزنبيل فيقيمك عند سيدته الى أن آتي اليك فيجب عليك أن تطيعي وأن لا تقولي كلمة وهو يحملك حذراً من أن تسمعك امرأة تناديه فتأخذك

فأجابت برأسها اشارة الى الموافقة

وقال الشيخ مخاطباً جان

لقد قضي الامر ياسيدى مدلين ولم يقض شيء

قال كيف ذلك

— ذلك ان الرئيسة اذنت لي بادخالك الي الدير ولكن قبل دخولك اليه يجب الخروج منه اما اخراج الفتاة فهو سهل ميسور

— ستخرج بها في الزنبيل

— بشرط ان لا تتول كلمة

— اني أضمن سكوتها

— ولكن انت كيف السبيل الى اخراجك ألا يمكن أن تخرج من حيث دخلت

— هذا محال

— غير انه يوجد أمر آخر يشغلني فقد قلت اني سأضع ترابا في التابوت بدلا من جسم ولكن ذلك لا يأتي بالفائدة المطلوبة فان التراب يتحرك فيدبه حاملوه وتقف الحكومة على جلية الامر

فنظر جان اليه وهو لا يفهم مايقول نظرة قلق اذ حسبه يهذى وعاد الشيخ الى الحديث فقال

ولكن كيف السبيل الى اخراجك اذ ينبغي أن أدخل بك الى الرئيسة غداً فهي ستنتظرنا

وعند ذلك اخبر جان بكل ما كان بينه وبين الرئيسة وكيف

انها أرادت مكافأته عن اخلاصه فأذنت له بادخال جان وابنته على أن يقيم ابدا فى الدير معاونا له فى البستان ثم ذكر له مايشغله من أمر التابوت الفارغ

قال ما حكاية هذا التابوت

قال انه حين تموت راهبة ترسل الحكومة التابوت والحمالين فيأخذونه الى التربة ولا بد حين قدومهم وأخذهم التابوت أن يشعروا انه لايوجد فيه شيء

— ضع شيئاً فيه

— أأضع فيه ميتاً غير موجود

— كلا

— إذن ماذا أضع

— ضع حياً

— أي حي هذا

— هو أنا

فوقف الشيخ منذهلا وقال أنت

— نعم أنا وماذا يذهلك

— انك تمزح دون شك

— بل أقول الجد اذ لابد من الخروج من هنا فقل لى الآن كيف يكون ذلك وأين يضعون التابوت الذى ترسله الحكومة

— يضعونه فى القاعة السفلى التي يدعونها قاعة الاموات

— كم يبلغ طوله

— ستة أقدام

— وما هي قاعة الاموات التى ذكرتها

— هي قاعة لها نافذة تشرف على البستان ولها بابان أحدهما يدخلون منه الى الدير والآخر الى الكنيسة

— أية كنيسة

— كنيسة الشارع العمومية

— هل عندك مفتاحا البابين

— كلا فليس عندى غير مفتاح الباب المؤدى الى الدير وعند البواب المفتاح الآخر المؤدي الى الكنيسة

— متى يفتح البواب هذا الباب

— عند ما يأتي الحمالون لاخذ التابوت ثم يقفله بعد انصرافهم

— من الذى يسمر هذا التابوت

— أنا

— ومن يبسط فوقه بساط الرحمه

— أنا

— أتكون وحدك

— لا يدخل أحـد من الرجال الى هذه القاعة ماعدا طبيب الصحة وذلك مكتوب على لوح معلق في الجدار

— هل تستطيع متى نام الجميع فى هذه الليـلة أن تدخلني

الى القاعة

— كلا بل انى أستطيع أن أقيمك في غرفة صغيرة تشرف عليها فاني أضع آلاتي في هذه الغرفة وعندي مفتاحها

— متى يأتي الحمالون غداً لاخذ التابوت

— في الساعة الثالثة بعد الظهر ويكون الدفن في تربة فوجيرار قبل هبوط الليل

— اذن سابقى كامناً فى تلك الغرفة كل الليل الى الساعة الثانية بعد الظهر ولكني أجوع فى هذه المدة

— آتيك بالطعام

— وفى الساعة الثانية تأتى فتضعني فى التابوت وتسمره

— ولكن هذا محال

— بل انه من أسهل الامور وأية صعوبة من وضعى في تابوت وتسميره

— ولكن كيف السبيل الى التنفس فيه

— سأتنفس

— أفي هذا التابوت الضيق . انى لا أكاد أفتكر بما تقول حتي أشعر بالاختناق

— انك تثقب التابوت ثقوب صغيرة فى مواضع مختلفة

— ولكن قد يتفق أنك تصاب بعطاس أو سعال

— ان الذى يهرب لا يعطس ولا يسعل والآن فلابد من واحد

من أمرين وهما اما أن يفتضح أمرى هنا أو أخرج بالتابوت

— الحق أنه لايوجد غير هذه الطريقة

— ولكن الذي يخيفني هو ماسيكون بعد ذلك في التربة

— لايكون غير الخير فقدوجدت طريقة الخلاص وما زلت واثقاً من خروجك بالتابوت فانا واثق من أخراجك من الحفرة التي يلدونك فيها قبل أن يهيلوا التراب عليك

ذلك أن حفار التربة وهو من أصدقائي سكير مدمن للشراب يدعى الاب مسنيان فانه سيضع التابوت في الحفرة وأنا أضعه في جيبي

— كيف ذلك

— ذلك انهم يصلون الى التربة قبيل هبوط الظلام أي قبل اقفال أبوابها بثلاثة أرباع الساعة

وهناك يحملون تابوتك بحبل وينزلونه الى الحفرة

ويكون الكاهن عند فم الحفرة فيصلي صلوة قصيرة ويرش الماء المقدس ثم ينصرف وينصرف الحاملون فلا يبقى هناك الا أنا والاب مستيان

وقد قلت لك أنه صديقي وأنه سكير فلابد عند ذلك من واحد من اثنين وهما أن يكون سكران أو يكون صاحياً

فاذا كان صاحياً أدعوه الى شرب كاس من الخمر قبل أن يهيل التراب فأميل عليه بالشراب حتى يسكر فأدعه في الخمارة وأعود

اليك بعد أن أخذ تذكرته فأدخل بها الى التربة

واذا كان سكران أقول له اذهب فسأقضي هذه المهمة عنك فينصرف ممتنا شاكراً فأخرجك من التابوت

فشكره جان وقال لقد اتفقنا

فقال الشيخ أرجوان تجرى الامور فى أحسن مجرى ثم قال في نفسه

هذا اذا لم يحدث ماهو فوق الحسبان

***

وفي اليوم التالى سارت مركبة من الدير وفيها تابوت من الطراز القديم يتبعها كاهن واثنان من الحمالين ووراءهم الشيخ يعرج فمشت الجنازة الى تربة فوجيرار

وكان راهبات دير بيكبيس قد نلن أذنا خاصاً من الحكومة بدفن موتاهن في المساء وفي مكان خاص من التربة اشتراه الدير

وكانت الحكومة تأمر في ذلك العهد باقفال الترب عن غياب الشمس فاذا اضطر أحد الحفارين أن يطيل بقاءه فيها الى مابعد الغياب فلا يحق له الخروج الا اذا أظهر تذكرته التي يأخذها من ادارة الصحة فيأتي الى الباب فيجد هناك علبة لها شق طويل من أعلاها كصناديق البريد فيلقي تذكرته فيها من ذلك الشق ويسمع البواب صوت سقوطها فيفتح الباب ويأذن له بالخروج

وأى حفار نسي تذكرته في بيته أو أضاعها ينادي البواب فيفتح له ولكن بعد ان يغرم بخمسة عشر فرنكا

فعند ماوصلت الجنازة اليها لم تكن الشمس قد غابت بعد وكان الرجل الاعرج الذى يتبعها الشيخ فوشلفان فانه كان قد وضع جان فالجان في التابوت الرسمي بعد ان وضع الراهبة في تابوتها

وأنزلها الى القبو تحت الهيكل وعمل كل ماأوصته به الرئيسة فكان يسير فى أثر الجنازة وهو واثق أتم الثقة من فوزه باخراج جان من ذلك التابوت

ودخلت الجنازة الى التربة والشيخ يفرك يديه ويقول في نفسه يالها من رواية مضحكة

وعند ذلك دخلوا بالتابوت فوضعوه في موضعه ودنا رجل منه يلبس ملابس الحفارين فلما رآه الشيخ اضطرب وقال له من أنت

قال انا حفار التربة

فاصفر وجهه فلو انقضت صاعقة عليه فى تلك الساعة لما شعر بها وقال له

أأنت هو الحفار

— نعم أنا هو

— ولكن الحفار فى هذه التربة رجل كهل يدعى الاب مستيان

— لقد كان حفارها

— والآن

— أصبح في جوف أرضها

— ماذا تقول

— أقول انه مات

كان الشيخ يتوقع كل أمر ماخلا موت صديقه الحفار فكاد يجن من خوفه على جاذ وجعل يقول

امات مستيان . امات مستيان

فقال له الحفار

لقد ذهب نابليون الاول فخلفه لويس الثامن عشر و مات مستيان فخلفه حبيبه فانى أدعى حبيبه

وقد كظم الشيخ مابه وخطر له أن يغرى الحفار الجديد كما كان يرجو أن يغرى الحفار القديم فضحك وقال

الحق انى استأت لموت مستيان فقد كان من خير الشاربين وكنت أرجو أن أشرب معه كاساً فى هذه الليلة ولكن ماعدمته منه لاأعدمه منك فهلم أيها الصديق نشرب كاساً الآن

قال انى لاأشرب الخمر ياسيدي

قال لاتقل سيدى بل قل رميلى فانى حفار مثلك فى الدير ولكن كيف مات مستيان

قال ان الله بحث فى دفتر الاستحقاق فوجد ان دين مستيان قد استحق

— ألا تريد أن نتعارف أيها الزميل

— لقد تم التعارف فانك قروى وأنا باريسى

— لكننى لا أريد هذا التعارف البسيط فقد جاء فى الامثال أن من أفرغ كأسه أفرغ قلبه . فهلم نشرب كأسا أيها الصديق ولا ترفض رجاء شيخ

— لنشرب كما تريد ولكن بعد قضاء المهمة

فقال الشيخ فى نفسه

« ويلاه لقد قضى على جاك أن يدفن وهو في قيد الحياة

ثم عاد الحفار الى الحديث فقال

ان عندى سبعة أطفال لامورد لهم الا أنا فهل يحق لى أن أشرب وهم يجوعون

وكانا يتحدثان وهما يمشيان الى جهة الحفرة فعاد الشيخ الى الحاحه وعاد الحفار الى رفضه فقال

انى أيها الشيخ من الذين تلقوا الدروس في المدارس العالية ولكنى لم أتمها لافلاس أبى فى البورصة فاضطررت الى أن أكون حفار قبور كي أطعم الجياع فكيف تريد أن أنفق مالى على الخمر

وكانوا قد وصلوا بالتابوت الى الحفرة فصلى الكاهن صلاته العادية وانصرف وربط الحمالون التابوت بحبل فانزلوه الى الحفرة ثم سحبوا الحبل وانصرفوا

وكان جان قد شعر وهو في التابوت انهم ينزلونه الى الحفرة

فبردت أطرافه ثم سمع صوتاً دوى فوق رأسه كهزيم الرعد فايقن انهم يهيلون التراب عليه فان الحفار كان قديداً يهيله فلم يلق فوقه أول مجرفة الثانية حتى خفق قلب جوان خفوقاً شديداً ثم أغمي عليه فلم يعد يعي على شيء

***

أما الشيخ فانه كاد يجن من يأسه فعول على أن يضحى التضحية الكبري فوقف بين الحفار وبين الحفرة وقال له

أنا الذى ادفع أيها الصديق فهلم بنا

فذهل الحفار وقال له

ما الذى تدفعه

قال ثمن الخمر

قال اذهب عني بخمرك فاني مشغل بامرى واهال مجرفة من التراب في الحفرة

فاعترضه قائلا

اصغ الي أيها الرجل فاني حفار الدير وقد جئت لمساعدتك وان هذه المهمة يمكن اتمامها في الليل فهلم نشرب كاساً ثم نعود

قال اذا كان لابد من ذلك فاني اوافقك على ماتريد ولكن بعد الفراغ من هذه المهمة

— ولكن المكان قريب على قيد خطوتين من هنا

— ألا تزال تعود الى الموضوع

— هلم بنا ألم أقل لك اني أدفع ثمن الشراب

— ولكن لا بد لنا من تغطية هذه الفقيدة فان البرد شديد

وكان الرجل يهيل التراب وهو منحن فرأى الشيخ ورقة فى جيبه عرف ماهى وخطر له خاطر شيطانى برقت له عيناه فمد يده الى جيبه الواسع وانتشل تلك الورقة فاسرع الى تخبئتها فى جيبه وعاد الى محادثة الحفار فقال له

انك حديث العهد فى المهنة فهل تذكرتك معك

— أى تذكرة تعنى

— ان الشمس ستغيب

— لننصرف حيث شاءت

— ومتى غابت الشمس اقفل باب التربة

— وبعد ذلك

— لابد أن تكون تذكرتك معك كى تستطيع الخروج من التربة

فبحث الحفار في جيوبه فلم يجد التذكرة فان الشيخ كان قد سرقها كما قدمناه لغرض سيظهر

ولما قنط من ايجادها قال له

يظهر انى نسيتها فى البيت

— إذن لابد لك من دفع غرامة قدرها خمسة عشر فرنكا

فوجف قلب الحفار من الرعب وألقى المجرفة من يده وهو يقول رباه خمسة عشر فرنكا

— لا أنكر أن المبلغ جسيم ولكن لايجب أن نقنط هـذا القنوط فانك تستطيع التخلص من دفعها . انك لاتزال حديث العهد في المهنة أما أنا فقد عرفت دقائقها وأحب أن أفيدك بنصيحة اذا أسرعت باتباعها نجوت من الخطر فان الشمس ستغيب بعد خمس دقائق كما ترى

— أسرع بنصيحتك ياعماد فاني اذا غرمت هذا المبلغ مات أولادى من الجوع

— ان هذه الحفرة التي تهيل التراب عليها لايمكن أملاء فراغها بأقل من نصف ساعة والباب سيقفل بعد خمس دقائق فهل منزلك بعيد

— كلا فانه في نفس هذا الشارع نمرة ٨٧

— اذن أن الوقت متسع لك ونصيحتى اليك أن تذهب في الحال الى منزلك قبل اقفال الباب فتأتي بتذكرتك وتعود الى دفن الميتة أما انا فانى أحرسها هنا حذراً من أن تهرب

— انى مدين لك بالحياة فان هذا المبلغ أعظم عندي منها

ثم انطلق راكضاً والشيخ يراقبه ضاحكا حتى رآه خرج من باب التربة فدنا من الحفرة وجعل ينادى الاب مدلين

فلم يجبه أحد فكرر المناداة فلم يسمع غير صدى صوته فألقى بنفسه الى الحفرة وكشف التراب عن التابوت ولم يكن قد غمره بعد فنادي جان باسم مدلين فلم يجبه أيضاً

وعند ذلك أسرع ففتح التابوت بآلة كانت معه فرأى جان مغمض العينين مصفر الوجه فجمد الدم فى عروقه لما خامره من الرعب وقال ويلاه انه مات وأنا أريد انقاذه

وقد وقف فى تلك الحفرة وجعل يشهق بالبكاء كالاطفال وهو يندب جان أشجى ندب

وفيما هو على ذلك رجع منذعراً وكاد يسقط على قفاه اذ رأى جان قد استوى جالساً فى تابوته وقال

يظهر انى قد غفوت

أما الشيخ فانه ركع وهو يقول

أحمد الله على سلامتك فقد اخفتنى إذ ناديتك كثيراً فلم تجب

قال إني أشعر ببرد شديد

قال لا بأس فستدفأ بكاس من الخمر والآن لنسرع بالخروج من هنا قبل أن يفاجئنا أحد

وبعد هنيهة كان الاثنان خارج الحفرة فنظر الشيخ الى باب التربة فرآه مقفلا فقال

لقد أمنا عودة الحفار فانه لا يستطيع الدخول الى التربة وتذكرته في جيبي

وقد اشتغل الاثنان باهالة التراب في الحفرة حتي اذا فرغا منها خرجا من التربة وسارا الى منزل الحفار فدخل اليه الشيخ

وجان ينتظره في الخارج فرد اليه معوله ومجرفته وقال له اذهب غداً إلى بواب التربة كي يعطيك تذكرتك فقدسقطت من جيبك كما يظهر ولقيها عند الباب فحفظها لك

قال والميت

قال لقد توليت دفنه عنك فان الزملاء يتعاونون فشكره الحفار شكراً عظيما وانصرف الشيخ عائداً إلى جان

***

وقد ذهبا معاً إلى تلك العجوز التي أودعت عندها غوسيت فقدما بها وهي لاتصدق أن ترى جان وكذلك جان فانه لم يفارقها غير يوم واحد

ومع ذلك فانه كان يشعر بعاطفة شوق شديد لا يستطيع أن يصفها حتى أيقن انه لم يعد يسعه العيش بعيداً عن هذه الفتاة التي كانت مناط آماله ولم يعرف الحب إلا بها

وكان قد مر بتلك المسكينة أربع وعشرون ساعة وهي لاتعلم ما يجري حولها فلم تكن تبكي ولكنها كانت ترتجف من الخوف ولم تكن ذاقت طعم الرقاد ولا رضيت أن تتبلغ بشيء من القوت وهي واجمة ساكتة

وقد طالما أرهقتها العجوز بالاسئلة المختلفة فلم تكن تجيبها بحرف عما تسأله كأنها أصيبت بالبكم والصمم

وذلك لان الذى كانت ندعوه اباها أوصاها أزلا تقول كلمة فعملت بوصيته

ثم انها كانت تعلم ان الموقف خطير وقد زادها حرصاً على الكتمان تذكرها ذلك العيش الذميم وما كانت تلقاه من الشقاء عند امرأة تناديه فكانت تخاف إذا قالت كلمة أن تعود إلى أسر تلك الظالمة

وفوق ذلك فان الصغار أشد حرصاً من الكبار لاسيما حين يدعوهم الخوف إلى الكتمان

فلما رأت أباها عائداً اليها صاحت صيحة فرح خرجت من أعماق قلبها وطوقت عنقه بيديها الصغيرتين فغسلت وجهه بمدامعها

***

وبعد ذلك بساعة كان الثلاثة عند باب الدير وطرق الشيخ بابه وكان عائشاً فى الدير وهو يعرف كلمة السر وإنما نقول كلمة السر لان هذا الدير كان يشبه الثكنات الحربية

فلما قال تلك الكلمة فتح الباب فدخل مع جان وغوسيت وكان البواب قد تلقى أوامر الرئيسة فى هذا الشأن فأدخلهم من الباب المؤدي من الساحة إلى البستان

وهناك ذهب الشيخ بهما إلى القاعة التى تلقى فيها أوامر الرئيسة ليلة أمس

وكانت الرئيسة تنتظرهم في تلك القاعة وهي جالسة على كرسي وبجانبها راهبة واقفة وقد اسدلت نقاباً غطى وجهها

ولم يكن ينير تلك القاعة غير شمعة واحدة فاخذت الرئيسة تفحص جان فالجان فحصاً دقيقاً

ثم سألته قائلة

أأنت هو أخوه

فأجاب فيشلفان عنه قائلا

نعم ياسيدتي

— ماذا تدعى

فأجاب الشيخ أيضاً فقال

إن أخي ياسيدتي يدعى التيم

وكان له حقيقة أخ يدعى بهذا الاسم ولكنه مات

فسألته قائلة

من أي بلد أنت

فأجاب الشيخ

انه من بيسكيني قرب أميانس

— كم مضى من عمرك

— خمسون عاماً

— ماذا تشتغل

— بستاني

— هل أنت مؤمن

— كل عائلتنا من المؤمنين

— وهذه الطفلة أهي لك

— نعم ياسيدتى

— أهي بنتك

— بل هو جدها

وكان الشيخ يجيب عن هذه الاسئلة فلم يغفل جان كلمة

وعند ذلك تمعنت الرئيسة فى وجه غرسيت وقالت للراهبة بصوت منخفض

انها ستكون قبيحة المنظر

وقد خلت الرئيسة بالراهبة هنيهة ثم عادت الى الشيخ فقالت له

يجب أن تشترى جرساً آخر يعلقه أخوك في ركبته كما نعلق نت جرسك

وفى اليوم التالى كان الداخل الى البستان يسمع صوت جرسين بدلا من جرس واحد

ولم تكن الراهبات يتمالكن عن رفع النقاب فكن يرين رجلين يشتغلان فى البستان جنباً الى جنب فكن يندهلن إندهالا عظيما الى أن علمن أن هذا البستانى الجديد إنما هو أخو البستانى القديم

وقد تغير إسم جان فالجان من ذلك العهد فبات يدعى التيم

وأما غوسيت فقد أدخلتها الرئيسة منذ صباح اليوم التالي الى مدرسة الدير بملء الارتياح

وإنما كان ارتياحها لوثوقها من أنها ستنتظم يوما في سلك الراهبات لانها لم تكن حسناء فان الحسان لايتقيدن عادة بهذا القيد

وأما الشيخ فوشلفان فقد عظم في عيني نفسه لانه نجح في يوم واحد نجاحا مثلثا

وذلك أنه أنقذ جان فالجان وتمكن من ايوائه دون خطر ونجح أمام الحفار اذ تركه يعتقد أنه أنقذه من دفع غرامة قدرها خمسة عشر فرنكا

ونجح أمام الرئيسه اذ دفن الراهبه تحت الهيكل وأخرج التابوت الرسمي فدفنه في التربه

وأما الرئيسه فقد أجلت خدمته وقدرتها حق قدرها حتى أنها حين زارها المطران روت لنيافته كل ما اتفق

وقد روت له الحكاية كما يروى المعترف أمره

ولكن المطران لم يحفل بهذا السر الاعترافي ورواه الى أسقف ريمس فنقله الكردينال الى البابا لاون الثاني عشر وكتب الباب الى أحد أقربائه في باريز يثنى على فوشلفان أطيب الثناء

على أنه لم يصل شيء من ذلك الى فوشلفان فاستمر على اشتغاله

فى البستان وهو يحسب نفسه أسعد البشر لوجوده مع الاب مدلين

***

ولزمت غوسيت الصمت فى الدير فانها كانت تحسب نفسها إبنة جان فالجان

وفوق ذلك فانها لم تكن تعلم شيئاً فتقوله

ومما ثبت بالبحث أنه لا يحمل الصغار على الصمت مثل المصائب وقد لقيت تلك المنكودة من الشقاء مالم يلقه طفل فى سنها فانها كانت اذا تكلمت كلمة عند امرأة تناردييه تعاجلها بالصوط فقد طالما ضربتها دون اشفاق حتى أسالت الدم من جسمها

ولكنها لم تكد تعيش مع جان فالجان حتى أنساها حنوه ذلك الشقاء القديم

ولذلك تعودت بسرعة معيشة الدير ولم تكن تأسف الا لفراقها كاترين حتى أنها صرحت مرة بذلك لجان فابتسم وقال لها

لقد ذهب يا ابنتى الآن دور هذه الالعاب وجاء دور العلم على انك تجدين من اللعب مع أترابك ماينسيك كاترين وسوف ترين

وكان من المكافأة التى نالها الشيخ عدا عما ناله من اهتمام العظماء بحكايته اذ أشغاله خفت كثيراً بمعاونة جان ثم أنه كان مولعاً بالتدخين أشد الولوع فكان يدخن ثلاثة أضعاف ما كان يدخنه من قبل بفضل سخاء جان

وأما جان فانه لم يكن يبرح الدير فاذا اضطر الراهبات الى شيء من الخارج ذهب الشيخ فى التماسه

ولكن الراهبات لم ينتبهن الى ذلك أما لاشتغالهن عن مراقبته بعبادة الله وأما لاهتمامهن بمراقبة بعضهن بعضاً على انهن لو رأين نظرات جافرت اليه لادركن سر احتجابه

ولبث جافرت شهراً كاملا يراقب ذلك الشارع فكان هذا الدير لجان أشبه بجزيرة محاطة بهوة عظيمة تكتنفها من كل جوانبها

بل ان جدرانه الاربعة كانت عنده أسوار الارض بجملتها فكان يكتفي أن يرى وجه السماء فيبش وان يرى وجه غوسيت فيفرح وكان عائشاً أهنأ عيش مع الشيخ فوشلفان يقيمان معا فى منزل مؤلف من ثلاث غرف لم يكن فيها شيء من الاثاث

على أن الغرفة التى كان يقيم فيها جان كان يوجد فيها خلا المسمارين اللذين يعلق بهما الجرس والزنبيل ورقة مالية ملكية مطبوعة سنة ٩٣ كانت ملصقة على الجدار وهذا رسمها

الجيش الكاثوليكى

بأمر الملك

هذه الورقة قيمتها عشر جنيهات تخصص لشراء

الذخائر الحربية

تدفع بعد الحرب

السلسلة الثالثة　　　　نمرة ١٠٣٩٠

وقد ألصق هذه الورقة البستانى القديم فمات فى الدير فلما
خلفه فوشلفان أبقاها فى موقعها كأثر تاريخى

وكان جان قد اشتغل فى الحدائق زمنا طويلا فى عهد شبابه
بل كان من حذاق هذه الصناعة فكان يشتغل فى البستان بملء
الارتياح وقد أفاد الدير فائدة جلى بما زاده فيه من المغروسات
وما أدخل فيه من ضروب الاصلاح

ثم ان الرئيسة كانت اذنت لغوسيت بمساعيه أن تأتيه كل يوم فتقيم عنده ساعه

فكانت تجيئه فى كل يوم فى ساعة معينة ويركض اليه فتعانقه فيجد النعيم بقربها

وكانت تقيم ساعة عنده فتخبره بكل مايجرى بينها وبين أترابها وماذا يتعلمن وكيف يلعبن فيرى من لهجتها مايطمئن له قلبه فى ارتياحها

بل انها صارت تضحك فكان يسمع صوت ضحكها وهي تلعب مع الصغار فيضحك قلبه لضحك فمها

وكأنما هذا الدير قد أتم ما بدأ به الاسقف من أنارة قلب جان فقد كان بعد مالقيه فى المدة الاخيرة يتنازعه عاملان من الخير والشر حتى لقد بات يخشى أن يكون أميل إلى الشر منه الى الخير اذ بدأ أن يقيس نفسه إلى الناس فتثور فيه عاطفة الكبرياء وتعود الى قلبه عاطفة الحقد على البشر وهي تلك العاطفة التى خرج بها من السجن

ولكن العناية القته فى هذا الدير فجعل يقيس نفسه إلى الاسقف ويحسب أنه حشرة من حشرات الارض

وهذا هو السجن الثانى فقد سجن أول مرة فى بدء شبابه فقضى نضارة عمره فى ذلك السجن الرهيب

وهو اليوم سجين هذا الدير الذى كان يقارن بينه وبين ذلك

السجن فيرتعش من هذه المقارنة

وكان يغوص أحيانا فى غباب أفكاره فيذكر رفاقه القدماء وانهم كانوا ينهضون منذ الفجر فيشتغلون إلى أن يهبط الليل وينامون على الخشب في قاعة باردة لا يوقدون فيها النار إلا حين تتراكم الثلوج ويخشون عليهم الموت

ولا يلبسون غير القبعات الحمراء تمييزا لهم عن أبناء البشر ولا يؤذنون لهم إلا بثوب من الكتان فى الصيف و بثوب من الصوف الرقيق في الشتاء أيام البرد الشديد

ولا يشربون الخمر ولا يأكلون اللحم . وينزعون منهم اسماؤهم فيعوضونهم عنها بعدد كأنهم الامتعة تعرض في الاسواق ويضربونهم ويقصون شعورهم كى لا يبقى شبه بينهم وبين الانسان

وهذا سجن الدير فان الشعور تقصر فيه والاصوات تنخفض والوجوه لا ترى الا من وراء حجاب ولا تقصم الظهور فيه من الضرب بل من السجود ولا تؤكل فيه اللحوم ولا يشرب غير الماء ويمتنع فيه عن الطعام يوماً بطوله أيام الصيام ولا يلبس غير الثوب الاسود وهو رقيق فى الصيف غليظ فى البرد وتلبس فيه المسوح ستة أشهر فى العام ولا تضرم النار فى قاعاته إلا حين يشتد البرد وينذر بالموت ولا تكون الافرشة فيه إلا من القش

ولا يؤذن فيه بالراحة فان سجيناته لا يلبثن أن تغفل عيونهن حتى تدق الاجراس مؤذنة بالصلاة فيذهبن عند بزوغ الفجر

ويركعن على البلاط فى أشد حالات البرد

بل أنهن فى بعض الايام يقضى على كل راجعة منهن ان تركع اثنتى عشرة ساعة على درجـة من درجات الهيكل فتلصق وجهها بالارض ويداها مكتوفتان على صدرها

فأى فرق بالعيش بينهن وبين أولئك سوى أنهن نساء وهؤلاء رجال

وما صنع هؤلاء الرجال فيعيشون هذا العيش الذميم . انهم سرقوا ونهبوا وزوروا وقتلوا وارتكبوا جميع الآثام وأساؤا بذنوبهم الى الله والى الناس

وأما أولئك النسوة فماذا فعلن : انهن لم يفعلن شيئاً

. ثم يقابل بين الفريقين فيقول

فريق ينغمس فى الآثام ولا يجول فى قلبه غير الشر وفريق يعكف على الصلاة وليس فى قلبه غير الطهارة

هذا مجرم يعترف الى رفيقه عن جرمه بصوت منخفض

وهذه نقية تعترف بخطاتها بصوت مرتفع

وكلا الموضعين دار استعباد ولكن الفرق بينهـما ان اللص السفاك والقاتل المزور يطمع يوما بالخلاص من الاسر

وان الراهبـة المودعه التقيه لارجاء لها بالخلاص من سجنها الى الابد

وان سجين السجن يوثق بقيد من حديد

وان سجينة الدير توثق بحبل الدين والايمان ولا تخرج من سجين السجن غير الشر والقنوط والحقد على هذا المجتمع الانسانى

أما سجينة الدير فلا تكون غير رسول السلام والمحبة فى الارض

وكلا هذين الموضعين المختلفين المتفقين ينتجان نتيجة واحدة وهى التكفير عن الذنوب

غير أن سجين السجن يكفر عن نفسه وسجينة الدير وهى لاذنب لها تكفر عن ذنوب الناس

هذا هو معتقد جان فالجان على علاته فقد كان ينهض عند انتصاف الليل ليسمع صلوات هؤلاء الراهبات فيقول فى نفسه انهن لم يذنبن ذنب يكفرن عنه بهذا العذاب وهن يبتهلن الى الله قانطات متعبدات لايشكون ولا يتألمن

أما هو فقد شكا وقنط وكفر بنعمة الله فبماذا يكفر عن سيئاته

وبعد ألم تكن مطاردة جافرت وسقوطه من منصبه وتسلقه ذلك الجدار ونزوله الى الحفرة تكفيراً له عن ذنبه فرماه الله بهذا الدير الذى لايفرق فى شيء عن السجن فان فيه الرتاج العظيم والباب المصفح ومن الذين يريدون حراسته فى هذا الدير وليس فيه غير الملائكة

أجل أنه مكان تكفير لامكان عذاب ولكنه أشد من السجن

شـقاء وهن لا يكفرن به عن ذنوبهن بل عن ذنوب الناس فما بالى لا أقتدى بهن بل ما بالي لا أقتدى بذلك الأسقف العظيم

هذا ما كان يجول فى خاطره حين استرساله الى التفكير فيبكى بكاء أليماً ويشعر ان كبرياءه قد سقط وأنه لم يعـد يجسر على أن يجثو أمام الله

ثم يحمد الله فيقول اني حين نبـذني المجتمع الانسانى كدت أبلغ أقصى غاية من الحقـد عليه لولا الاسقف وحين طاردنى رجال الحكومة كدت أبلغ حد الجرائم لولا هذا الدير فالحمد لله ثم الحمد لله

وقد مضى عليه عدة أعوام على هذه الحال وكبرت غوسيت فنسى بقربها كل شقاء فى الوجود لأنها كانت عنـده كل الوجود



﴿ انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثانى ﴾